



ياسين الغماري

روائي تونسي من
مواليد سوسة، متحصل
على بكالوريا علوم
تجريبية سنة 2014
وعلى الاجازة الأساسية
بالمائة بالفرنسية سنة
2019، وعلى ماجستير
في التحليل المالي
بالانجليزية 2021، يتركز
اهتمامه على الاقتصاد
والتنمية المستدامة
وهو موضوع بحثه في
رسالة الماجستير
وسيرته الروائية زمن
التعب المزمّن الصادرة
بالمانيا عن دار
ال دراويش للنشر
والترجمة

خسوف

ياسين الغماري

الساعاتي "صانع الزمن"



السّاعاتي ، صانع الزّمن

الكتاب: الساعاتي، صانع الزمن (خسوف)
المؤلف: ياسين العُمّاري
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер



العدد: ٨٦٤

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٢٣

ص: ١٤ × ٢١ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنّما تعبّر بالضرورة عن آراء
ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٣



(ISBN) (ردمك) الورقي

لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.

الصّفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر

فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة

المدير العام: بدر السويطي

للتواصل: 

الدّراويش للنّشر والتّرجمة 

daralDarawesh@gmail.com

هاتف: 00491627040179. ص.ب: 87600

شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا. 

© كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس
العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنّه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي
جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت
تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص
مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.
* تباع النّسخة إلكترونيًا عبر موقع الدّار.

السّاعاتي ، صانع الزّمن

ياسين الغماري



الدّراويش للنشر والتّرجمة®

AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM

بلوفديف - جمهورية بلغاريا

Plovdiv-Bulgaria

2023

هذه الرواية محض خيال، وأي تشابه بالواقع فهو مجرد صدفة

الوقت ماكر، يجلو له أن يبكيك
أحلام مستغانمي

ساعه الحائط، أشدّ الحيوانات الأليفة ضراوةً
أعرف واحدة-من قبلُ-التهمت ثلاثة أجيال من عائلتي
ماريو كويتانا

لديَّ رغبة دفينّة وغير منطوقةٍ لشيءٍ يفوق تفاصيل الحياة
فيرجينيا وولف

(1)

في يوم الأحد، السابع والعشرين من نيسان من سنة ستّ وثمانين
وتسع مائة وألف، كان الوقتُ ساكناً. ترتجفُ عُرفتي من وسط المبنى.
والمبنى يغصُّ في غيوم مجاهل مدينة نيس الفرنسيّة. كنتُ أشاهد كارثة
تشير نوبل. ممّا لا شكّ فيه أن جماجم مسؤولي المحطّة قد تفرقت إلى
أشلاء، والعيون مسحوبة إلى الداخل. إنّها أسوأ طريقة قد يموت بها
الإنسان. أن يُعانق مصرعه بحثاً عن المعرفة والكمال. في ذلك الوقت،
كنتُ أقوم ببحث أكاديمي حول المسؤولية الاجتماعيّة للشركات. وحول
دور المؤسّسات الماليّة في تمويل المشاريع التي من شأنها أن تقود إلى الهلاك،
على غرار المشاريع النوويّة. لصنّع عالم أسوأ. وتشير نوبل واحدة من تلك
الكوارث المموّلة. لا يسعني إلا أن أتخيل كمّ الخسائر البشريّة والماليّة.
ناهيك عن الأمراض الفتّاكة التي ستظهر في وقتٍ ما، منها السرطان، بيدَ
أنّ السلطات الأوكرانيّة قالت إنّ المنطقة-التي انزلت في بحر الظلمة-
قد أصبحت منكوبة. وتمّ إجلاء قاطني المناطق المحيطة بالمفاعل.

خرجت إلى وسط المدينة. أسير في شارع جان مايديسان. مضيتُ أوّلاً
لشرب الشوكولاتة الإيطاليّة السّاخنة في كافيه فيرجنانو. ثمّ تحوّلت إلى

مجال الثياب الباهضة. لا أستطيع أن أجم نزعتي في شراء الثياب التي لن ارتديها. كل ما كنت أهتم به هو الشكل.

حاز بحثي درجة كاملة، بل ولاقي قبولاً جيداً من قبل جميع الدكاتره. الأمر الذي وضعني موضع حسد من طلاب دُفعتي. كُلَّمَا زِيدْتُ فِي إظهار السَّعادة وجدتني مُتَوَعِّلاً فِي مَرَاتِي المظلمة يومذاك. تنظرني طالبة فرنسيَّة شقراء بشكل مُؤذ. كان من الجليّ أن أشعر بالحق الذي تحمله للغرباء مثلي. أدركت أنني عربيّ القسَمَات، بيدَ أنّ خلّاني بالوطن، كانوا يُطلقون عليّ لقب الطلياني كوني لا أحمل شبهاً بالعُروبة.

ينبعث صوتها همساً:

«هذا العربي القذر قد حصل على درجة ممتازة»

ومع ذلك كنت أكون-من وقت لآخر-مدعاة للتنادر. لا يهمني هراءهم، طالما أنني لا أهتمّ بما يتناقلونه، عندما أهتمّ سأضطر إلى الضرب على مؤخراتهم، أو فلتلفظ أفواههم بما شاءت.

شغفي لن ينضبَ زيتَه، باستثناء حال سُقَّتْ أنفاسي. إذا كانت هناك حقيقة نبيلة يجب الدّود عنها، فسيكون نجاحي حازماً وثابتاً. عُبار الزمن لن يُغيّر من إرادتي شيء إلاّ عظمة. لا رغبة لي سوى الظفر بالنجاح بصورة صاعقة. أن أكمل الإجازة والماجستير والدكتوراه. نشوتي القصوى أن أصير أستاذاً جامعياً وأن أصل إلى أعلى الرُتَب. أن أتقلد منصباً مُهمّاً في

أحد البنوك الفرنسيَّة الكبرى. وأن أصبح كاتبًا عظيمًا. رغبتني في الحصول على بعض الأمور المشتهاة ليست كما كانت عليه في السنوات التي عشت فيها هُنا قبل أن يحدث اختلال في رضائي.

أوشوش خفية: «لن ينقصني شيء» وللرياح وشاية تكاد أن تُعرِّيني.

أشعر فيها بالاشمئزاز المزمّن من كل شيء وكل شخص
فيرجينيا وولف

(2)

إلى عيادة الطبيب أصل.

قال لي الطبيب «تيمور» الذي أتردد عليه بشكلٍ منتظم:

«هل مازلتَ تبحث عن الكمال؟»

«وبشدة»

«الكمال مؤذ. ضريبة قاسية»

«لا تهمني العواقب»

«في الرضا سعادة وطمأنينة»

«أرغب بكلّ شيء دون نقصان»

مُشكلة الطبيب «تيمور» -الذي أزوره- هي أنّه دائماً ما ينظر إلى ساعته ويتظاهر بالاستماع إليك، لكنه لا يفعل ذلك. المال همّه الوحيد. يُمكنه منحك ما تُريد من العقاقير المنوّمة -حتى لو كان لها تأثير مدمر- لكن هذا لا يهم، فكل أدوية العقل لها أثرٌ مُحرّب.

ويعمل بما يُرضي الله، يستلّ ورقة. يُدَوِّن فيها عقاقير. انهيار عصبيّ يأخذه بإذن الله.

يمدّها لي مُستخلصًا:

«ميعادنا، سيكون بعد أسبوع»

نظرتُ إلى جواربه ، كانت احداها رمادية، والأخرى لونها مغاير. أتى له أن يُرتّب نفسي وهو لا يُزواج بين جواربه.

طاب لي أن أخبره أنّ النقاش بيني وبينه لا يُفضي إلى شيء ولا يُرجى منه نفع. ليس هناك تحسّن.

اعتقدت أنّها ليست فكرة سيّدة.

مشكلته الثانية كانت، أنّه لا يشرح لك ما الذي تُعاني منه على وجه التحديد. كنت أسأله عن مرضي، لكنّه يصمت ويتجاهلني. لذا أقرأ إشعارات العقاقير التي أقتنيها. هذا لا يكفي. لا بُدّ لي من البحث بين الكتب والمواقع الطيّبة. أحسب أنّي أقوم بعمل جيّد في تحقّق مرضي. وأنا مخطئ فيمَا أعتقد. تعلّمت الكثير من الأشياء حول كَيْفِيَّة التّعامل مع الآثار الجانبية. اضطررت إلى مضع علكة بالإكسيليتول كيلا أترك فمي ناشفًا. أضغ مرهمًا واقياً على وجهي. كان من المحتمل أن أصاب بضربة شمس مزدوجة.

في متجر بيع الأدوية، يُبادرنِي الصيدلي قائلاً :

«فيه الشفاء»

«أيّ شفاء؟ الأمور تسوء»

يُجيب وينشغل عني. «آثار جانبية»

ألقي نظرة على الأدوية فأجدها مُغايرة للتي كنت أستخدمها.

تنصحني صبيّة صيدلانية متربّصة بالتخلّي عن هذا الدواء. سأصبح مدمناً. وسأكسب زيادة في الوزن، رُغم نحافتني. وهو مُثبّط انتقائي لاسترداد السيروتونين يُغيّر المواد الكيميائية في الدماغ. و الباحثون لا يعرفون بعد خطر هذه الأدوية. إنهم يُريدون بيعها فقط. ومُضادات الاكتئاب يجب أن تُعطى بعد الحصول على النوع القويم من ألجين؟ لكن الأطباء يُدُونونها عن طريق الصدفة، لعلّ فيها الشفاء، وكثيراً ما لا تجدي.

انزلقت للخارج. عندما كنت أسير في الشارع، كان هناك صوت قادم من أبعاد غير معروفة. كان صوت والذي يرّ في أذني، على أمل أن أعود رجلاً. ثمّة شخص بلا مأوى. يرجو التعاطف. لا أحد يهتمّ به. المشكلة هي أنّي لا أهتمّ لمعاناة البشر. لم أشعر بأدنى شفقة عليه، ومع ذلك فأنا شديد التآثر بمعاناة الحيوانات. بلغ بي الإرهاق مداه، فجلست على أحد المقاعد المُصدّعة و كنت فارغاً، شعرت وكأنني سأنفصل عن جسدي. تكوّمت على وضعيّة الجنين. فكّرت في الطريفة التي سوف أصاب فيها بالإغماء. أغمضت عيناي لئلا يُشاهدني المارة، هذا غباء؟ بالتأكيد، مثل خدعة النعامة.

وأعود إلى شقتي. أجلس بلا حراك، على مألوف العادة. وكلّي رغبة أن
أملك كل ما في الخارج. أُمّني النفس بحدوث شيء ما، لا محال.

على إيقاع المثابرة أترقص. بجرأتي فوق منصّة الذكرى الأولى. بدفقة
التعب المُستديم. يا مُستقبلي الباهر في المُضيّ والمُواظبة. أبتغي نجاحًا لا
يُضاهيه نجاح. أريد أن يكون النَّجاح السَّاحق أشيائي الدَّائمة لا يمكن
المساس به. أرقص من جنب وإلى جنب. إلى جنائن ذات ألوان من جمال.
وبهجة طازجة ترتقب حصاد التعب.

أفتح النَّافذة على أقصاها. مثل شعلة مضيئة في ليلة صاقعة يتنامى
توهّجي كُلّما هبّت رياح تلوي رقاب الأشجار.

أخاطب المدينة:

«أرغب بالسَّاء»

تُجيب المدينة بصوت مرّ نظير بالتيه المعهود:

«تكفيك الأرض»

فأمتنُّ بجسارة زائفة:

«أن ألس عليائي»

انهمر المطر عاصفًا.

ليس النّجاح هو سبب السعادة. بل السعادة هي سبب النّجاح
اينشتاين

(3)

بدت نيس لطيفة مع تعاقب الأيام. منذ أن جئت، أدركت بشدّة
إنتمائي إلى هذا السّاحل اللازوردي الجميل. ألغيت انتمائي لوطني الأمّ.
بتعلّة انتهاء صلاحية إقامتي على أرضه. وطني مقبرة الأحلام وتابوت
الأحياء، لكن الذنب لم يكن فيه بل في قاطنيه.

واصلت مُتابعة آخر مُستجدّات تشيرنوبيل. خلف الانفجار سحابة
شرّيرة من الإشعاع النووي دثّرت سماء أوكرانيا بأكملها وحتى روسيا.
استحوذت عليّ فكرة مخيفة ألا وهي هوس المعرفة الذي يقود إلى
الهلاك.

انصرفت إلى القسم الآخر من بحث المسؤولية الاجتماعية للشركات.
كل ما يدور في بالي هو كارثة تشيرنوبيل وأجهل السبب.
لم أتحدّث عن وضعي السيئ وعن صحّتي النفسيّة لأي شخص لأنّ
هذا سيحطّ من شأنِي. ومع ذلك، يجب أن يكون هناك شخص ما في
حياتي، كما نقل لي الطّبيب تيمور.

في باحة الكلية، سقطت فضلات الحمام من الأعلى. كادت أن تصيبني لولا المظلة. ثمّة شيء سحري يحدث لي. شيء عُدَّ بالقدر ومن صنيع الإرادة. إرادتي التي لن تُقهر. ألقيت نظرة خاطفة على أحد الأساتذة التونسيين وقد كان يترأس مكتبه. يتحدّث إلى أبناء الوطن، وطننا المنكسر والمنكوب.

دخلتُ إلى قاعة المحاضرة.

نلتُ درجة ممتازة، أخرى، أنا الآخر. كادت الفتاة الشقراء أن تموت عُبنًا. رأيتها مُجمَّع أغراضها في حالة هستيرية. وانزلت من القاعة. يُمكنني أن أتخيّلها تبكي عبثًا طوال الليل.

النجاح يجعلك مشغولًا بتحقيقه. وليس صدفة. يُباغتك على حصيلة التعب.

أُظهر سعادتي بعين حريصة لتلافي لطآخة الحزن التي من شأنها أن تغمرني في غفلة مني.

ذهبت إلى مقهى في أحد الأحياء القديمة بـ«سان بول دي فينس»، مع أصدقاء الكلية، كانت على غرار مقاهي المدينة العربي بسوسة. ومن باب الدعابة ثمّة من قرأت لي راحة يدي وكُوب قهوتي المنتهي. أعطتني علمًا أنّني لن أبلغ الثلاثين من عمري. بعد التاسعة والعشرين ظلام وزوال، أي هلاك وموت. كان قدرني مُختلفًا عن مصير أصدقائي في الكلية يومذاك.

ولكن جرحي عميق هذا الأسبوع
أعمق من أن تصدر عنه ولو تنهيدة واحدة
غادة السَّمَان

(4)

اليوم هو آخر يوم من أيام الترقب- وهذا اليوم يلاقيه هب كارثي -
وجدت نفسي في لائحة المؤجلين. عبثاً ارتفع صدري وهبط مثل بطن
حامل. جعلني الشكّ أسأم لدرجة أنني أفرغت ما في بطني. شبهاً خائفاً
أصبح وجهي. الفرحة بشرية خادعة. رجمني القدر في متاهة لا أعرف
ماهيتها، لكنّ هذه المتاهة تسلبني أنتد من نفسي وتجعلني أتقاطر في
ذلك الظلام البعيد. أجهل طريقي داخل هذا الأسى الخانق. نجح أكثر
الأشخاص حماقة بالكُلية، وأنا قد تأجلت. لماذا حقدتُ عليه؟ ولا أدري
لماذا أنا؟ إني تمزق اللحظة الواجمة بين الهواء والنار.

عبثاً أجر جر أقدامي مثل ثعابين تتلوى. أدركت لفترة من الوقت
أنّ الأرض تدور حولي، على جري العادة. هالات الصمت مُغرية حدّ
الخسارة العظمى. وليتُ راجعاً خافتاً. بدا هذا اليوم حاراً وألسنة اللهب
تُصيب قرني مثل حريق لا أعرف مأناه. هذا التفكير القاضم للنفس
جعلني مثل شخص من دُخان. لا صوت لي ولا صدى.
الحياة تكمن في الجمال. والتوفيق هو امتداد الحياة. أنا اليوم في حالة حداد.

بعد التحقق من ورقتين، ألفتُ أن الأساتذة لم يتلقوا اختباراتي، وأسندت لي أعداد هزيلة.

كانت المفاجأة أن بعض الإداريين تلاعبوا بأعداد بعض الطلاب الميسورين لابتزازهم، لكنني لم أكن ميسور الحال. شكلي يُوحى بذلك فقط. أنفق كل نقودي على الملابس والعطور والمطاعم، فلا يبقى في حوزتي بنس واحد. تكمن المشكلة في أن الطبيب «تيمور» قد مرّ عليهم بغيّة معرفة بعض المعلومات عني. بما أنه يأتي من حين لآخر للطلبة. بجعله، أولاهم رصاصة وضعوها في قلبي. اتخذوا ما أنا به ذريعة لوضعي في زاوية من ضباب. يُزعزعون مُحاولاتي في الإستقرار النفسي. عندما انفرد بي في أرشيف الطابق الأرضي سقط بيده على وجهي، فصفعني. فارتفعت يدي ساقطة على وجهه صافعا إياه.

قال ولسانه يُرفرف كلسان زوجة أب بياض الثلج:

«سنُخبر الجميع أنك مجرّد شخص مجنون»

صُراخ مُتصل وشرير على غير هدى :

«لا أحد يُصدّق حقيقة تخرج من شخص يتناول مُضادات الإكتئاب»

ما عاد في مقدوري تكوين مُجملّة مُتكاملة لا بالفرنسيّة ولا بالعربيّة بعد ما قاله. أشفق على نفسي حين أهنم. اللوم يقع على عاتق الطلبة. من سيُصدّق حفنة من الطلبة؟ سيُناصرون بعضهم البعض ونُطرد نحن. كان

لأبد لي أن أصمت وأفكر في حلّ. كانت الأدوية تعبت بتركيزي وتضعف قدرتي على التفكير بشكل منهجي. لم أشعر عبثًا بالضيق والغرق كمثل هذه الفترة المسكونة بالمرارة.

الليل قد أسدل قناتمه والأمل أينه؟ القلب تهاوى والأمل أينه؟

منهك أنا. غافل إلى حد كبير. لم أنم منذ أيام. أربع ساعات كحد أقصى. أينما وليت وجهي وجدتني في لائحة أولئك الذين يستميتون الإطاحة بهم. أشعر أنني في حالة حلم. أنا حلم قد كسروه. هذه الحالة الهوجاء التي كنتُ فيها من قبل -والآن عدتُ إليها- لأن كل شيء غير واقعي، كأنني مُتفاوتًا. مُتختم بالسكون والحُزن والدهشة. الصّوت الذي يُجاورني محض مُعربد. لا أستطيع أن أفهم ما يُقال لي. ولا يُمكنني التركيز لفترة طويلة مع المتكلم. أتعبُ سريعًا. مأساتي خاطفة ومُتواجة. لم أتوقّف عن ضرب الأرض بقدمي، عساني أجد الوجود. وأين الوجود؟

مهما فعلت، فإن أحدهم سيحاول رسم الحدود لك
أنطونيو سكارميتا

(5)

نفسي بحاجة لا توصف إلى فهم، قدرًا هائلًا من الفهم. أحور وأدور
بين معرفة المزيد وعدم فهم أي شيء فأضيع، وبين حسبي إلى هذا الحد
الرهيب وأفهم شيئًا هزيبًا فأجد نفسي. أتشبّث بملاء قاعدتي لأدرك
ماهية الوضوح، أو للوصول إلى نقطة أجد فيها عزائي. ولا شك أن كل
ما أفكر فيه هو أنني أخجل من فشلي ونفسي.

يُمسك الطيب «تيمور» القلم والأجندة ويُخاطبني:

«ما أمرك؟»

«أشعر بالكآبة»

«هل تواظب على أوقات تناول الأدوية الخاصة بك»

«بكلّ تدليل»

«ما أمرك؟»

«تأجّلت نتيحتي»

«أعد اجتياز اختباراتك في دورة التدارك»

«لا شغف لي»

«هذا تشاؤم كئيب منك»

«أفصح لك عن مكنوني كي أجد مخرجًا من هذا الشعور الذي وضعتني فيه»

غمغم كما لو كان يتحدث إلى شخص يقف في واجهته. كان من الجلي أنني لست الوحيد الذي يعاني من اختلال نفسي. مشكلته الثالثة كانت مع جواربه غير المتناسقة التي لا يتفطن إلى مفارقة ألوانها وهذا ما يبعث على الإستهام أن زوجته - هذا إذا كان لديه زوجة من الأساس - لا تهتم بهندامه الخاص ولا ريب أنها تقضي أمسياتها مع عشيقها لإرضاء عرى الزوجة المهملة التي لا تحصل على حقوقها، وفي غداة غد، تواجه صعوبات هائلة في تمييز زوجها من عشيقها وهي تنظر إليه بنصف إغفاء.

قرأت مقالة أن أولئك الذين يرتدون جوارب غير متوافقة وعجبية الألوان هم أغزر إبداعًا من أقرانهم. أحسب أن هذا "التيemor" أغباهم.

«كله بسبيك»

«دعني أتحدث إلى عميد الكلية بشأن ما حدث»

صرخت في وجهه بشيء من البطش :

«كلا. لا مزيد من الأشخاص. حسبي فضائح»

«لا أحد يقع ضحية الاحتيال دون التورط مع المتحيل»

«في ماذا اشتركتُ معهم؟»

«في الصمت»

«أنتَ تُبرِّرُ جريمتك المُتمثِّلة في إفشاء السرِّ الطَّبِّي»

أحدَّ البصر في أجزاء وجهي كما لو كان سيُسدِّد لي لكلمات. كانت مُشكلته الرابعة أنَّه يُفشي السرِّ الطَّبِّي بسهولة.

ما عاد يعينني أمرُك» غمغم باللغة الإسبانية، ظنًّا أنَّني لم أفهمه.

لا يعرف أنَّني تعلَّمت الإسبانية في المدرسة الثانوية، أنا الآخر. ولا أفهم سوى القليل منها.

تخلَّيت عن استغبائي الدَّارج معه وواجهته:

«أشبهك لا يعنون بأمرنا. يرونا أوراقًا نقدية. أنت غير كفؤ لمُساعدة النَّاس. أنت أنت أنت»

ولذتُ بالصَّمت في انتظار ردِّه فعله.

نظر إليّ ودحرج ابتسامته على شفثيه استحالته إلى حالة من الارتباك وردَّ على إدعائي :

«المرضى على بيِّنة بما تقوله ومع ذلك يأتون إلينا»

خاطبته ببسالة:

«لقد كشفت السرِّ الطَّبِّي الذي قادني إلى الفشل»

أضفت بعد شيء من الهدوء المعلن :

«في غنى عن خدماتك»

ألقي الطبيب «تيمور» الأجندة جانباً وقفز من كرسيه على قدميه. كان فارع القامة. رياضي الجسم. مُنبسط الكتفين وشاحب الخدين. وخبث العينين. وثبت أنا الآخر من على الأريكة، والحسّ بالغثيان يطغى عليّ. عيناي المتعبتان قابلت عينيه الماكرتين. انهارت أقدامي على الأريكة بنظرة منه، والتعب يضغظ على أعصابي. كنتُ متعباً لآتي ألحظ ما يُحيطني ممّا يجعلني ذلك خائباً جداً.

صرخ «تيمور» بصراخ عالٍ فكُسِرَت أجزاء من وجهي وتوقف تنفسي المحموم.

ثمّ دنا منّي وتزيّ بزيّ الأبوة ويقول بحتلمانية :

«كل ما نقوم به محض دجل. مع السلامة يا عزيزي»

الدموع تصلّبت في محجري. قلتُ شجيّ النفس :

«أي تيه هذا الذي أنا فيه»

فأجابت المدينة التي استحالت إلى ملاهي رُعب والناس الواجفة في جوفها تتسابق فيما بينها :

«لا تستحقّ شيء»

تُمْطَرُ.

قُلْتُ:

«سَأَكُونُ كُلَّ شَيْءٍ»

فَأَجَابَتِ الْمَدِينَةُ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى مَلَاهِي رُعْبِ وَالنَّاسِ الْوَاجِفَةِ فِي
جَوْفِهَا تَتَسَابَقُ فِيهَا بَيْنَهَا:

«لَا تَسْتَحِقُّ شَيْءًا»

تُمْطَرُ.

ترامت بداخلي كراهية مضاعفة للبشرية جمعاء. مصحوباً بكلّ العُقد
التي لن تنفصل عني. هذه الكراهية بآتساع الأرض أنظر من خلالها كما
ينبغي إلى العالم. وفي غير توافق مع العالم الذي سار مقلوباً على رأسه.
كل ما يحدث بأعماقي في تبدل جهنمي إلى فقدان كوني إنساناً. من المدى
الصامت تكوّن الزبد الأسود على شكل إستغاثة غير مسموعة. وكان
توقعاً. أن يكون المتلقي أصمّاً. فلا شيء يستجيب إلى مأساتي الكبرى. أو
عذابي الفردي. لم أعد أمتلك مكنة على التخاطب.

كان العالم كثيرًا، وكنتُ أنا وحدي

بثينة العيسى

(6)

في يوم- لا يُميّز أيّ شيء عن أيّ شيء آخر- غير السواد المتورّم، كانت في الثلاثينيات من عمرها يومذاك. بعد ثلاث محاولات فاشلة، أزمعت «سيلفيا بلاث»- وبلا تراجع- التخلّص من نفسها، وأرادت هذه المرّة أن تمرّ بثبات، دون أن يتمّ إغاثتها. كانت قد شرّعت نوافذ البيت على آخرها وأمطرت طفلهاها بقبلات أخيرة منطفئة عقب إطعامها وترك ما يقوم بسداد رمقها في الثلاجة للساعات القليلة القادمة، ثمّ عمدت إلى المطبخ وتهاكت على عضادة الباب. انثالت الدموع من عينيها مدرارة والحلّكة تكتنفها من جُلّ الثغرات التي أفضت إلى ما آلت إليها حالها الفوريّة. ثمّ قامت بحشو منافذ المطبخ بالمناشف المبلّلة لئلاّ ينبجس الموت الحتميّ إلى طفلها. فتحت قارورة الغاز على آخرها وجعلت الجيوب المنومة تغمرها باختناق مرير.

كانت الأبجدية واجمة، ساكنة، مُنزوية، شاحبة. الأبجدية تحتضر. بينما النبض يُغادرها، يتركها، ينفذ منها، الموت يسحقها، هذا الموت كان مدويًا، مُتمردًا، مُنتفضًا. تحولت الحياة في ذلك الوقت إلى أبعاد عميقة ومظلمة لا نهاية لها. حسّ «سيلفيا» بالاستسلام والانهار غمد في أغوار أعماقها ما يستحيل وصفه.

من المُستحيل وصف شعورها. شعورها بالانهيار. وبحسّ جنائزي وبقلب مليء باليأس، دسّت رأسها في الفرن، وساد صمت القبور، فيما الغاز يخترقها وينفذ إليها ويقبض بثلاثين عامًا من التدهور المستمرّ وينقلها بمنأى عن العالم الذي استماتت في البُعاد عنه. وهذا العالم جعل شعورها طيِّ النسيان بمجرد أن قبض على روحها.

تلقى الدكتور النَّسيّ-الذي صرف لها مُضادات الاكتئاب قبل بضعة أيّام من أن تُوافيها المنية-الملامة، مع العلم أن طبيبها العام منعها من تعاطيها، وتوقّع الأخير أنّ هاته الأقراص قد تُسيء التصرف في وضعها الهشّ. وستعمّق من سوء حالها. الأمر الذي أدّى إلى رغبة مُبالغ فيها في قتل نفسها. لو وجدت الاحتواء والدعم، لما قتلت نفسها. الحياة ليست مُنصفة لمن يعيشها بشفافية أطفال.

ترامى إلى ذاكرتي الطّريقة الكئيبة التي أنهت بها «فرجينيا وولف» حياتها على التّوالي.

عقب سنوات حافلة بالأعجاب الأدبية المتواترة، حلّت بها الإخفاقات والنكسات المتلاحقة. فآل بها ذلك بأن تُصاب بالهوس الاكتيبي. حالة مُشابهة لتلك التي مرّت بها من قبل. كانت تعرف ضمناً أنّها ستظلّ على قيد الجنون. وكان لا بُدّ من ذلك، حيث نشأت تُرهف السّمع إلى أصوات مشبوهة وهستيرية. تكدّر صفو تركيزها. بدأت تفقد نفسها رويدًا، رويدًا.. حتّى اليوم الذي قررت فيه التخلّي عن كل ما تبقى من

عالمها. كانت قد كتبت خطاب وداع مُضطرب لزوجها. في ذلك، تُعلمه أنّها لم تعد قادرة على سير الأمور. وأدركت أنّ الأصوات الضالة تنحني نحو أذنيها. كانت على يقين من أنّها ستفسح المجال للسعادة لزوجها من خلال القيام بهذا الفعل، وانتهى الأمر منذ أن فقدت قدرتها على القراءة والكتابة. ما أن أنهت خطاب انتحارها إلى زوجها، تهادت بثقل فكرها وارتدت معطفها.

ذهبت إلى النهر المجاور لمنزلها وحدّقت فيه بقلب فيفيض باليأس. لاحت لها السماء حالكة السواد بيد أنّها كانت في وضح النهار. ثم ملأت جيوبها بالحجارة. توغّلت داخل مياه النهار وبدأت ترتجف.

أغرقت نفسها دون تردّد، وتوفيت عن عمر يناهز التاسعة والخمسين.

تقول لي فيرجينيا:

«يُمكنك أن تكون كلّ شيء»

أجيبها بشيء من العجز:

«عقلي هو الحاجز بيني وبين النجاح»

تقاطع «سيلفيا» مُحاورتنا:

«الإحساس الدائم بالنهاية كشف موهبتي... حاول أن تتعايش مع

النهايات»

أصمتُ كدُمية ذات جمجمة مثقوبة وأوتار عصبية ممزقة. في ذلك الصباح، غمرني الضياع واليأس والتحطم، أردت أن أطلب المساعدة وأشرح أنني لست على ما يرام، أنني أنهار.

من أعلى رأسي المترaxي-ترتفع أعمدة رفيعة-تتهدى منها شرائط فشلي. كان لدى كل شخص في الكُليّة شيئاً من القدرة على معرفة ما أخفيه من إخفاق. فبحثت عن مشرط لقطع الشرائط العمودية. وبدأت في قطعها واحدة تلو الأخرى. حين دلف شخص ما إلى دورة المياه، توقّف الزمن مفتوح العينين من هذا المشهد الساكن والمرعب، ونَدّت عنه صرخة مدوية، وخلافاً لما أرجوه لم أكن أقطع الشرائط وإنما أحاول قصّ إصبعي.

وحين يكتشف الناس أنني قد فقدت عقلي رغم تكتم أمي
فإنهم سيقنعونها بوضعي في مصحة نفسية حتى أشفى.
سيلفيا بلاث

(7)

من وجهة نظري، الاكتئاب ما هو سوى كلمات أرادت أن تطلق
وُخلِّق في عنان السماء، لكنها بقيت مُقفلتة في الذهن، أن تُقلَّ مرضاً عقلياً
مفاده أن تكون وسط أناساً أصحاب يتحدثون عن أشياء ليس لك أن
تفهمها، إنه يعني قول كلمات لن تُفهم. الاكتئاب يُمثل الإنسان الشريف
إلى أطراف الحدود، فهو لا يعي في أي أرض يُريد أن يعيش وما الذي لا
يزال يعيش من أجله. هذا ما لم تستطع والدي إدراكه، وعلى قناعة تامة.
جاءت بعد أيام قليلة، في الوقت الذي كنتُ فيه على بينة من الحقائق
المروعة التي تنتوي صنعها وهذا ما حزَّ في نفسي. كانت مُتسحة بالسكينة
والهياج معاً. ثم ساد وجوماً مُعرباً عن قرار. أخذت مُستقرها بالقرب
من الطبيب «توماس». كان الأكثر رجحاناً أن تنفجر تبكي على تيهي
وسوف تبُلل مآقيها، لكن لأبالتها نقلت رسالة مفادها أنها ليست عابئة
بما يحدث لأولئك الذين يقربونها. أنشأت مُخاطبه بفرنسية تحتوي على
الكثير من الغنج. لم تفد إلى فرنسا لنجدتي. وإنما تأمل معاهدة لتركي في
إحدى المشافي حتى أتعافى من الإكتئاب، البقية الباقية من عمري، وكل ما
يؤلمني يكتنفه حجاب الغربة. وكل من سيسأها عني ستردّ له قائلة: «ابني

يدرس في أرقى كليّات في نيس. «ولكن نظراتها تقول: «دماغه لا يشتغل كما ينبغي. صار ذا عقل ملتو».

أعطتني ابتسامة ملؤها التخلّي. ناسية كل ما عداها. نوبة قلق تنتابها بشأن كل عدّة سنوات، ولن يؤذيها ذلك. تتوارى مثل رصاصة والخجل المُطلق مُرتسماً بجلاء في أجزاء وجهها. ذهبت يدي اليمنى إلى ذلك المكان الخالي من الوجود. إنّ خطايا الآباء والأجداد يدفع أثمها الأبناء والأحفاد.

في مستشفى الطب النفسي لا يأتينا المرضى، بل ضحاياهم
جودى بلانكو

(8)

ما كان الولوج إلى المستشفى أسوأ ما في الوجود، بل كان بالأحرى
فنّ الهجر. في مرحلة ما، تكون بيوتنا بدايات مُتفَرِّعة لمعيشة فاشلة، وفي
أوقات أخرى تكون ملاجئ النِّهايات عودة أنيقة لكل ما يربطنا بأرض
الواقع. ومع ذلك كنت أؤمن بأنَّ قلوبنا وعقولنا في حاجة إلى الهدم
وإعادة الإنشاء، تمامًا كما يجب أن تكون منازلنا.

«أحرص على عدم الدخول في مناوشات ومعارك، لأنَّ هؤلاء الأطباء
والممرضات سيتحملون سخافتك، وما كان يُمكن أن تفعله أَسْرَتِكَ.»
واصلت الحياة بعد دستة من الأسابيع وأشهر من سماع هذه العبارة،
كانت بمثابة إستقبالٍ لي من الساعاتي، والذي بدوره، أصبح، في وقت
لاحق، صديقًا والذي أساكنه الغرفة، ويُعاني من اضطراب الشخصية
المُضادة للمُجتمع، الكلّ يخافه إلاي.

بمرور الوقت، المصححة النفسية صارت ملجئًا. وفي خلال هذا المدى
الزمني، كان يجب أن أبقى نفسي متماسكة بغض النظر عما حدث. أستطيع
أن أقول إنني وجدتُ منزلًا مُستبعدًا ومَنسيًا أفراده يكرهون أن يكونوا في
عالم، ليسوا مُرحِّب بهم فيه، ولم يعد مُتأكدًا من وجوده. يزدرون من حياة

مُتوحّشة. جعلهم العقلاء في معزل، أولئك الذين يعيشون بشكل أفضل. لم يكن من في المصححة هو الشخص الأكثر سوءاً في العالم ولكنه أكثر شخص مُنفر في العالم، لم يكن لأتهم سمات قبيحة، لكنهم وُلدوا جميعاً في منزل حيث تحدث كل الأشياء البغيضة. هذا ما أراد «توماس» معرفته، أراد التحقق من ماضينا، أظنني غيباً، بما يكفي، إلى نقطة الكشف؟

تشير عقارب الساعة إلى السابعة صباحاً. هناك حداد حول قلبي يجب التغلّب عليه بأي وسيلة. كانت الأثار الجانبية للعقاقير، تعبت بملكاتي الذهنية، مثل خيوط من الدخان تدخل وتخرج من رأسي. أتقلّب على جانبي الأيمن. أستدعي ذكرى خلّت، أيام كنتُ مُعافاً. يتعاطم شعوري بعناء الآني وضيق الأتي. أفسّر سرير الساعاتي وقد كان مُرتباً، فهو يُحافظ على وقته الدارج لرياضته. أتنهد بعمق وأحلق في خواء صبيحتي. كان التعب لي بالمرصاد، ولم يكن لديّ الكثير من الحافز لترك سريري، ربّما أحتاج إلى شخص يُشير نحوي دلو من الماء البارد. هذا سيفي بالضّورة.

يرن صوت الممرضة «كاثرين» بشكلٍ استفزازي، فأركل الفراغ وأسقط على الأرض. لقد حاولت في كثير من الأحيان إضعاف معنوياتها، لكن عملي المثالي الذي أنويه لم يتكلّل بالنجاح.

تصيحُ في وجهي داهشة :

«توقّف عن الأمور الصبيانية، لقد أتممت عامك العشرين»

ناه منّي، كان مساء أمس عيد ميلادي، هناك أشياء مُحبطة حول أعياد

ميلادي، ليس لدي أي فكرة عما أصبحت عليه، وهذا يجعلني مُقيداً بما كنت عليه من قبل.

أردّ قائلاً :

«التعب لا يعرف فئة مُعيّنة، وأنتِ لستِ معصومة منه»

«ستتعب لا محالة إذا كنتِ لا تعني بشأنك، فلن يُعطيك أحد أدنى رعاية»

ثم تابعت، بينما كانت تُزودني بحبة دواء :

«إذا كنتِ تعرف كم مللتك»

«بناءً على ما أراه، أصبح الخارج عصياً ويثير اشمئزازي إلى أقصى حد من الحالات»

«لن يرفضك أحد، إذا لم تسمح له بذلك»

«أي شيء يُثير اهتمامك ما أن تطأ قدميك عتبات المغادرة من هنا؟»

فصمتت لردح من الزمن دون أن تزيغ بنظرها عني وقالت :

«أن أعود وأقوم بعملتي»

قلت :

«هل يخضع المرضى حقاً لاختبارات استكشافية مثل تلك التي يعرضونها علينا في أفلام الرعب»

فأجابت بسخرية:

«من الجيّد أن تعرف أنّك لستَ من الصنف الذي نوّدُ العمل عليه»

«فشلت حتى في هذا»

«كفاكَ عتْها»

«سأكتشف دفاتنكم مثلما تكشفون دفاتني»

«سيكون الطّيب «توماس» مستاءً جدًّا لسماع هذا»

«ليس لديّ دليل قطعيّ»

ما من سبيل، لاسيما في الصباح، إلى إثارة حنقها

شعرت بهبوط مُفاجئٍ وحاد في المزاج، فغيّرت مجرى الحديث:

«ماذا أفعل عندما أفقد رغبتني في الحياة مرّةً أخرى؟»

«استمرّ فيها فحسب»

لم تتحقّق من أيّ قد تناولتُ الحبة بالفعل. تظاهرت بابتلاعها وبصقتها
ما أن توارت عن عيني.

لأسباب أعتقد أنها منطقيّة، تقرّر منّي مُنذُ يومان أن أتوقّف عن تناول
دوائي، لم تكن آثاره الجانبية حميدة، حيث عانيت من اضطرابات في المشي
فكنت أرطم بالحوائط، ناهيك عن الصّداع المُستمرّ والقيء والارتجاف
والصّعقات الكهربائيّة المفاجئة والغثش والجفاف ومشقة التبول

وكوايبس حالكة وصباحات قائمة وغيرها من الآثار الجانيبة المدمرة، كلها مُزعجة ومُحرجة. كنت فزعاً، على الدوام، من أن تشرع هذياناتي المؤتلفة من جديد، فتسرب كلماتي عن تأثيرات الأدوية التي أستخدمها، كنتُ أعلم ضمناً أنني يجب أن أتحدث عن مثل هذه الأشياء لنفسي فقط، لكنني لم أستطع السيطرة على نفسي، فالدواء يشبه شخصاً يتلاعب بي بمحض إرادتي، ويُجبر عقلي على النطق بها لا يوصف.

كانت حديقة المستشفى شاسعة وصاقعة، كندفة ثلجية ناعمة لا تنصهر، وهي مُزدانة أيضاً بالأشجار والأرائك الخشبية. كان هناك طريق تعلوه طبقة كثيفة من الشجر الخالية من الروح. يتناهى إلى مسامعي خشخشات غريبة للمرضى فأختنق وأتأوه، كما لو أنّ بداً خبيثة أمسكت برقبتي وعصرتها، فجعلت أسير بتراخ كسفينة تائهة في أغوار المحيطات، بدون دليل، ليس ثمة من يسوسها أو يُخبرها أين الدرب الصائبة، كان كل ما يمكنها فعله هو الإبحار والمتابعة بشكل مُتأسك دون أدنى قدر من المعلومات أين يُفضي طريقها أو أي شيء يطمّر لها الغيب، بلا مُحركات وبلا أشعة، تحتضنها الأمواج وتقودها كما شاءت. كسفينة مُهمّشة، قضى مالكتها نحبهُ مُخلفاً رُكابها لأفواه التيه والجحيم القادم، وكل محطة أصل إليها أجدها تعجّ بالمطبات، والموت النسبي، وفي كل مرة أجتاز فيها هذا الموت دون أن يُمسس جسدي بسوء وإنما عقلي كان يطاله التواءات وأقسامه يُوافيها الموت. أعلم أنني لن أكون أبداً ما أريد، لكن بصيص أمل كان عالقاً في قلبي.

إِسترعى انتباهي غرائبٌ بعض المرضى، وجُنونهم المطلق، الَّذِي شقَّ
ثنيته مُتخارج عن حُدود العقل ولم يعد ذا صلة بالمنطق. تعرَّضني وجوه
حزينة، ومُنهكة، ومنسيّة، وجوه كالحة استغنى أهاليها عنها. وترامى إلى
مسامعي جدلاً مُتحدماً يدور بين ثلاثة مرضى، أحدهم كان يلعب دور
الأب الصارم، والآخر دور الابن الغاضب، والآخر دور زوجة الأب
المتهورّة. كان واضحًا وجليًّا أنّهم يُعانون من انهيارات عصبية عنيفة.

جرحي أكثر عمقاً من أن أواجهه،
وأكثر نزفاً من أن أجرؤ على فك الضمادات
غادة السمان

(9)

دلفتُ إلى عُرفة، مُضاعةً بشكلٍ خافت، الأخشاب مُنتشبة في المدفأة،
لأوّل مرّة لاحظت أنّ الطبيب «توماس» في وقت مبكر من عقده الخامس،
وبيلغ طوله على الأقل خمسة أقدام، نظرت إليه، ورفعت حاجبيّ خاملاً،
جلستُ حابساً أنفاسي، ضربتني لفحة من الدفء. كُنْتُ أعجّ بالأمزجة
السوداوية والإحساسات المُتسمة بالإنهاك والتهالك، في كلّ مرّة أدخل
فيها غرفة «توماس» تُعاودني ذكرى زيارتي البكر للمعالج النَّفسيّ
«تيمور»، لم تكن جيّدة، خالطني إحساس بالفزع وقتذاك، لنفترض بأنّي
ما كُنْتُ أملك خيار ثانٍ سوى طلب المساعدة، وإلاّ فيّ سَأفقد أعصابي،
فساقتني المقادير إلى أحد المخبولين، اللذين بدورهم، في حاجة إلى سيطرة
نفسية. سألني عن سبب مجيئي إليه وأي شيء أريده من هذا المحجىء،
وعبثاً نظرت لي نظرة غريبة، استفزازية. ما زلت أتذكر كيف قُلت بهياج
شديد، في حين كُنْتُ أصعد يدي الرَّاعشة والمتعرّقة، وأنني لا أعرف
ذريعة قُدومي، وما أدركه هو أنني أعاني من إرهاق مُزمن وصُداً شديداً
طوال الوقت. كان غير مُحترف وخالٍ من التّواصل ولا يعرف قراءة
مرضاه، وعلى قدر كبير من العجرفة. ثبتَ اعتقادي فجأة أنني أتحدّث

إلى جدار من الفولاذ. استنفدت خيارى الوحيد والمرضى أصبح أكبر من اللازم. هذا ما حدث ما الساعاتي على التوالي، جعله طبيبه النفسى يشعر بأنه لا شيء ولم يكن يستمع إليه باهتمام، فتارة يتركه يتحدث إلى الفراغ، وينشغل بالمكالمة الهاتفية، وطوراً يشيح بوجهه وينشغل عنه بالحاسوب، وعبثاً يسكته معلناً انتهاء الوقت. ثم شرع له أدوية وصرفه معها، وقبل ذلك قال له أن يتصل به إذا كان هناك شيء يستحق الاتصال به، وانسل الساعاتي خائباً منبؤداً، وهاتفه بشأن شيء يتعلق بالدواء، لكنه لم يجب. كان قد ناشد للحصول على المعونة والإصغاء والإرشاد وما لاقى منه إلا الأزدراء واللامبالاة والسخرية، وهذا ما زاد عليه الضلال والظلام. وأزعم أنتذ على أن يأتلف المرضى ويتعايش معه كما عاش بالفعل معه في حين كانت نوبات الهيجان الشديد تندلع بداخله من وقت لآخر. وبرم أطباء النفس برمتهم، لم يطلب المساعدة مرة أخرى، ومع ذلك، زار طبيباً عامّاً صرف له الليثيوم. كان في قرارة نفسه أنه سيطلب في اطلاعه عن عدم قدرته على النوم والأكل والتفكير المنتظم، وعن ساعات النهار التي قضاها يحدق في السقف. المشكلة الرئيسية للأمراض العقلية هي أن تكون في حال هش بشكل دائم للغاية. وعلى ضوء ذلك، علل لي أحد النزلاء في المستشفى سبب وجوده هنا، حيث كتب رسالة قصيرة إلى طبيبة الأعصاب التي زارها، وضح من خلالها، أنها عاهرة وقذرة كبيرة. أعطته مضاداً للاكتئاب ليقى في الفراش طوال حياته، وأن عقايرها لا تقل خداعاً عنها، لذلك تلقى منها عدة مكالمات ولم يرد، وفجأة جاءته

رسالة قالت له فيها أنه رجل مجنون والكثير من المقاذع التي لم يسمع بها من ذي قبل، وبشكلٍ غير مُتَوَقَّع وجد نفسه ههنا بحُجَّةٍ أنه يُشكِّلُ خطراً على محيطه.

أخبرني أحد أقارب الأسرة ذات مرّة عن الفترة التي قضاها في مستشفى الرازي. كان الطبيب المُعالج يهينه في مُعظم الأوقات. بحماقة، يخرج لسانه، يصفه بالجنون، إلى أن يُثير حنق قريبي، ويجعله على مكيال من الوحشية، ويحقنه بإبرة مُحدّرة.

كان «توماس»، يعرض لي، في كل مرّة، صوراً مختلفة ويسألني عما يخطر ببالي متى أراها، وأخبرته أنّ ما يفعله يثير اشمئزازي ولا يهتمني ما يفعله وما يفكر فيه. اعتقدت أنه سيفعل الشيء نفسه هذه المرّة لكنني كُنت مُخطئاً تماماً.

وتشتت كلماته عبثاً:

«أنت شخص غير إجتماعي»

«ليس كل الناس يستحقون المعرفة»

ما قاله يصعد إلى رأسي، ممّا أفقدني توازني. «اشرح لي علاقتك بالأمّ؟ ما كان عنكما؟»

«كانت تُحبّني»

وباسترخاء عضلي خلعتُ عني نظاراتي. مكثتُ أطلعه بعيون غامضة

تحمل ضعينة. كان فكري يسترسل ساخطاً. كأنني في مكان أجوف وتعييس، تُصادف فيه الأحوال طريقها نحوي. لا يُمكنني أن أصف الحالة المظلمة التي تحوّلتُ إليها. والأرجح أنّ ذلك عائد لخوفي من فتح قلبي في سابقة لم أعدها. انفجر بداخلي اختناق لا حدود له. اقترح أن يُسبر أغواري مُستخدماً التّنويم الإيحائيّ، شعرت بالانكماش لخاطرة أنّي سأكون خاضعاً لمثل هذه الأشياء. لم يُحذف من الذاكرة، حذفاً تاماً، جلسات الصعقات الكهرباء، التي أُجبر بعض المرضى على إجرائها. أستطيع أن أشعر بحلّكة استنزافهم. هذا لا يختلف عن ذلك. بصقت بملاء قرفي. وقفت بقامتي المتوسطة وسرتُ باتجاه الباب، فكان مُوصداً. سحب «توماس» من جيبه جهاز التّحكّم عن بعد ولم يبرح موضعه، فأنشأت أصبح ناشداً المغادرة.

قال على وقع الضجيج:

«لم يحن الوقت بعد للرحيل. فإن طاب لك، سنراقب بعضنا البعض حتى نهاية الوقت»

داهمتني قشعريرة غريبة وبدأت أنضح عرقاً. سحابة سوداء طفت في رأسي. كان جسدي المتهالك يرتدّ. سقطت على الأريكة، وأطلقت منّي بقايا الصمود. انحسر نفسي الواهن. وكان العالم يطوف من حولي وهذا العالم يجلبني إلا في أوقات الضيق. بطني تننّ بعنّف. يستحيل الأنين إلى

قعقة. وتستحيل القعقة إلى خناجر. أتحمّل على وجعي وأمهض. فأرتدّ ثانية وأسقط. لم أجد إلى ذلك سبيلاً. أدركني حسّ أنّ كلّ شيء يتداعى بداخلي.

تستمر الهزيمة. وبلغ شعوري بالمرارة حدّاً لا يُطاق، نظرت إلى «توماس» وقالت عينيه :

«أستطيع أن أرى الظلام من عينيك»

بقرفي، بسؤمي، أبدي مقاومة. كنت غريباً في بركة من العرق.

ويتضخّم صوته:

«لست كما يحلولي»

وفي خلال خضم مُعاناتي، تخرج كلماتي مُتقطّعة. كان صوتي خليطاً بين اللامبالاة والنُّعاس :

«شكراً لك أيها الطّيب. لقد سُفيتُ تماماً بقولك هذا»

أطب في كلامه بينما يُشير يده إلى أصص الورد :

«الأثار الإنسحابيّة جليّة، ارجع إلى أدويتك أو سنضطر إلى إجبارك

على القيام بذلك»

لا يُمكنه أن يشعر بالألم أو تعب الآخرين لأنه يتمتع بصحة نفسية جيدة، وينضح حيوية و طاقة. ويجيا حياة مُريحة. في الواقع، عندما أكون معه لا أشعر بالكراهية أو الاستياء تجاهه، لكن هذه المشاعر تنضح متى غادرتُ مكتبه.

إن كثيراً من الاضطرابات جاءت نتيجة الصدمات العنيفة
التي تعجز عن تحملها النفس
فرويد

(10)

بعد أسبوع، انتشرت سحابة سوداء وتلاشت السماء تحت غيوم
مُظلمة.

كاشفني «توماس» أنّ ما أعاني منه -وفقاً للأعراض- يندرج تحت
مُسَمّى اضطراب ما بعد الصدمة النفسية، وهذا أدّى إلى إصابتي -لاحقاً-
بمُتلازمة التعب المزمن، وأنّ كل ما خبرته وما أعيشه ما هو إلا رد فعل
سوي لهذه الصدمة، وهي مُحاولتي للبقاء على قيد الحياة. شرح لي أسباب
الصدمة وأعراضها كلون من ألوان التثقيف وتبسيط صورة المرض. وإذا
كنت أنشد الشفاء فمن المستوجب أن أفتح له قلبي فتحاً كاملاً. وينبغي
التخلّص من طاقتي المكبوتة.

قال وقد تركّز بصره نحوي :

لا بُدّ أنّك تعرّضت لحادث مؤسف «حكّ ذقنه.»

لا شيء مما سبق «أجبت»

«عندما تكذب، تُشيع بوجهك عن المتصل»

كلامه لا يخلو من منطق شديد. ابتسمت ولم أحر جواباً، ولأول مرة في حياتي، لاحظني شخص ما بمثل هذه الدقة الفائقة. أعلم ضمناً أنه كلما زاد البوح، كلما كان من الممكن التغلب على جدار الذاكرة، ومن الأكثر رجحاناً أن أنسى وأمضي قدماً وأنا لم أعد أرغب في اختراق أي طبيب لجداري. فالاعتراف مُدمر وغامض مثل الأفعال. كنت أشعر بالإرهاك التام من هذا الكون. كل ما أريده من العالم الخارجي أن يتركني بكل أشكاله. إنه لأمر يرثى له. جسدي غالباً ما يكون مُتعباً، كما أنني لا أريد مُغادرة المصحّة أو التواصل مع الأشخاص خارجها، وأني في مأمن أكثر من أي مكان آخر في العالم، ومع ذلك، كان هناك شيء بداخلي يصرخ مُستتجاً: «أنت على حق في أن تعيش حياتك».

كان يُحدثني بصوت فيه شيء من التحوط. «ما هو سبب كوابيسك إذن؟»

«بصنيع العقاقير التي تُعطيني إيّاها»

«الدواء الذي تتناوله يعمل على منع حدوث هذه الكوابيس»

«ترتّب عنه تسوّس أسناني والتهاب اللثة»

وفي ضوء ما أخبرني به طبيب الأسنان-الذي في زيّه الأزرق- فإنّ تناول الأدوية النفسيّة أدّى إلى جفاف بالفم نتيجة تأثيرها على الغدد اللعابيّة، ممّا زاد من معدّل البكتيريا. ترتّب عن ذلك لسوء الحظ سحب

عصب أربعة أسنان وتليسيها. أستطيع أن أقول كذلك إنَّ مينا أسناني - هذه الطبقة الأكثر صلابة في جسم الإنسان وغير القابلة للبناء - قد أصبحت هشّة بعض الشيء ذلك من تصاعد الحمضيات من بطني. وأستخدم الآن معجون أسنان خاصّ - غنيّ بالكالسيوم والفسفور وهيدروكسيلاباتيت - للتخفيف من حساسية الأسنان. كما أرقُد بطقم شفّاف مطلي بتركيز عالٍ من الفلوريدا. وما عتَمَّ الطبيب «توماس» أن يدافع عن هذه الأدوية الصّاعقة.

سادنا شيء من الصّمت. لم يستطع الوصول إلى نتيجة مُحتملة معي. انفجر بداخلي يقين - بعد الفترة الزمنية في المصحّة - أن «توماس» كان منشقاً قليلاً عن أطباء العقل الذين كانوا معتوهين. ولّد في نفسي انطباعاً جيّداً.

«أعطني بضعة أيّام أو أسابيع للتّفكير»

لكّ ما تشاء» هزّ رأسه بثقة حتّى يجعلني أعتاد الأمر بسهولة. «

وعلى إنارة خافتة، قرأت في كتاب علم النّفس - الذي أعطاه لي - أنّ الأعراض النّفسيّة والجسديّة لاضطراب الكرب التّالي للصّدمة تظهر في غضون أسابيع أو أشهر أو سنوات من مُعايشة الحدث، حيث يُعاني المُصاب من حُطوب في التركيز والحفظ وعدم القدرة على النّوم، كما يُعاني من كوابيس ليليّة وشعور بالمُباغته والهلع والاكتئاب والتّعب، والعديد

من الأعراض الجسدية التي تؤثر سلباً على قدرته على القيام بأنشطته اليومية، فيتفارق غيابه عن الحياة، ناهيك عن نظره الضئيل للمستقبل الذي يراه قد خلا، ويتطور الأمر به إلى اضطرابات شخصية فُصاميّة، فيرى ويستمع إلى أشياء غير موجودة.

وإذا صفا لك من زمانك واحداً،
فهو المراد وعش بذائك الواحد
ابن الفارض

(11)

أنا أحب الثلج، على الرغم من أنني لم أراه في بلدي فيما سبق وفيما
تلا. شبيه بالقطن، شاهدته يهطل راذقاً في الأفلام، يهطل رقاقت على
الأسقف، المباني والشوارع، يملأ المكان بجمال أبيض ناصع ونقاء مُشعّ.
كان الثلج شيئاً رائعاً، يقيني، يُمكن أن ينقذ حياة ضائعة، وله أن يُخفّف
من ضيق الأرواح المنكسرة. في جو لطيف مُحبّب وعطوف، وحينما كُنّا
مُفترشان ثلج الأرض، نُسرح أبصارنا بعناية إلى سماء استشرت فيها غيوم
قائمة بشكل رهيب، بدأت ندف الثلج تسقط ببطء من مبنى المصحّة في
حين اندفعت ريح خافتة تكسو الحديقة. لم يسبق لي في حياتي أن خبرت
هذا الإحساس بالراحة.

هاجمني الساعاتي بسؤاله إذا كنت على تواصل مع رفاق الوطن،
فأجبتّه بازدراء :

«أيقرّ الوطن بالرفاق؟»

قال بشيء من المرارة المستترة و كانت عيناه مثبتتين نحوي :

«عين الصواب»

قلتُ له إنَّنا نفقد الأصدقاء لكثير من الأعذار، الصدق أوَّهم. كما نجد أنَّ مُعظم المناطق المحيطة بنا لا تُشجِّعنا وتجعلنا لا نفعل شيئاً، ولن يكون هناك شيء سهل. تسعى لإخطارنا بانحدار لا نهاية له، لنشعر بثقَّة مُتعرِّسة للجهود الكبيرة التي بذلناها. وبمجرّد أن يتكلَّل عملنا بالنجاح، تجفَّ عيون الحب لتنمو جذور الكراهية. لن يرضى عنك سوى قلَّة من الأشخاص، وعليك أن تنجح على أي حال. فلاشيء أقسى من أن يهزمك فأس الفشل.

وجمت وقلتُ بعد هُنيهة :

«أن تملأك الأسرة بالعقد»

ماتنَ السَّاعاتي موقفي ذاك:

«ما الأمر كذلك، الأسرة هي أحد الأشياء الجيدة في الحياة»

هدرت في سريري :

«لا يمكنك أن تفهمني ما دمت لم تمر بموقفي»

قاطع هواجسي قائلاً :

«إذا كُنْتَ تُعاني من الخسارة، فيجب عليك أن تذوق مزيداً من

الخسارة»

أعقب بعد إن جرَّضَ بريقه:

«لقد فقدت عائلتي الأصليَّة في حادث مروري»

هدرت في سريرتي :

«أنا الآن أفهم سلوكك المعادي للمجتمع»

قُلْتُ جهراً :

«كلانا يُعاني من الفقد، فقد العائلة وفقد الوطن»

رمقني بابتسامة بطيئة وقاطعني بينما ضحكاته تعلقو :

«ومرارة الرفاق»

وفي طرفة عين، أحاط بنا شيء من السُّبات، وتفكرنا في ذكرى الماضي المسمومة. رأيت حياتي كقلعة رملية. حبة إثر حبة تراكمت مسرّاتي. وبصورة غير مُتوقّعة، أتى المرض، وفجّر جبروته في قلعتي، التي ادّعت الحاجة إلى تشييدها لسنوات بالغة الطُول. تهاكت أجزاء قلعتي كحلم ضبابي استحال إلى كابوس حقيقي. غير مرّة، أسخط من مصيري. أين أنا من كل ذلك. إذا كان القدر يعني الله. من أنا حتى أتمرد على الله؟

غمم الساعاتي بصوت خفيض :

«أخلّص إلى التساؤل عن مصيرنا»

قلت له ودماعي مُتقلّصة تقريباً :

«سنُطحن»

كانت الحياة مفقودة في موطني وكذلك كانت الصّداقة.

الصداقة، لم تكن قائمة في وطني، فمنهم من يتعثر في طريقك فتمد له يد العون، وآخرون دورهم أن يكون عقبة حتى تخرجهم عن طريقك. كل شخص في روايتك يجيء صفحة أو بضع صفحات، ويختفي دوره إلى أن ينتهي وجوده بخذلان قلمي، ويتلاشي دوره لاحقاً ويغدو نسيئاً منسياً مع قُدم شخصيات أخرى، غريب يعود كما كان قبل بضعة أسطر، تتقاطع مساراتكم في الصفحات، فيكون اللقاء بشكلٍ سطحي، وسُلبت جماليات المعاني السابقة ولم يبقَ منها إلا جمود الغرباء، ويُمنحى انمحاء فظيغاً بعبارة تُشرع بـ «كان».

يتضخّم صوت الطبيعة بإعصار هائج مُنتقم.

أدخلاً. أضحى الجو قبيحاً للغاية في الخارج» صاحت «كاثرين» دون أن تطرف لها عين. «

وفي مسيرنا إلى الداخل أعربت واللسان مسحوب للدّاخل :

«أشتهي طيخ بلادنا»

«كذلك»

قفلت راجعاً وابتسامة طفرت على ثغري. يُطابقني في ما أقوله وما لا أقوله وما لن أقوله. هذا ما يجعلني مُرتاحاً في الحالات الفردية التي أعتزم دائماً قولها. ما يروقني كذلك في شخصه أنه عليم بكلّ الأحاجي. كائن يمتطّر في بحر المعرفة. من ذي قبل وإلى الآن، لم يفهمني أحد، أعتقد أنّ

المعضلة تكمن في نفسي. منشأ السبب مني. صدمات تتالت أخرجتني عن طوري. في أحيان كثيرة أقول كلمات مشفرة. أحب أن أتناقش معه. إنه لأمر مُدهش أن نعثر على أرضية تفاهم مع شخص لم نعرفه بعد. في حياتي لم أكن أو من بالعائلة بقدر ما صرتُ أو من بالغُرباء.

لقد كنتُ مرهقاً، إلى مدى أن تقرّر منّي الانتفاع من لحظة هواني وقول حقيقة، لم أكن، من ذي سبق، أتطلع إلى إقرارها، أثناء لقيانه هناك حدث سحري يحتوي حلقة شعورية ملغزة، لذلك أكون في مجال الريب وأشك في خلقته، أكان حليماً؟ حينما أكون وإياه تغزوني مشاعر انشقاقية وأنني في عالم خرافي لا ينتهي أبداً. لفرط ما تروقني رفقته، ولوجوده نشوة نهايات لا تنتهي، مما أتموضع في علياء أبخرة اليقظة المراد الاستقرار فيها.

مرّة، حين أخطأت في شخصه، غضب منّي شرّ غضب وهجر صحبتي لأسابيع بعد ذلك. كان يتحاشى النظر في مجال تواجدي واعتبرني من المغضوب عليهم. تركت له رسالة ناقلاً إياه أنه عندما يرتكب أحد أطفاله المستقبليين شيئاً خاطئاً، فإنه سيُسامحه لاحقاً. وأنا أيضاً ابنه، وأستحق أن يغفر لي. لقد كان غاضباً منّي لأسابيع. فهو أبي الذي تبناني. كان أبي المفقود. إذا تركني، سأكون الطفل المتبنّي / المهجور / الخاسر. وهو أسوأ شيء يمكن للإنسان أن يحدث له. لبي المال إلى معدل ضربات قلب غير متوازن. كنت أتنفّس بشكل سيء للغاية. كما لو كنت سأترك هذا العالم. أدركتُ أنّ حنقه مُجاهي قد أخذ من عميقه مأخذ الوجوم. وأنا عن نفسي لم أقترف في حقّه خطأ من شأنه أن يخلق فجوة

بيننا. وبفائض أناة حاذرت في ألفاظي. على الرُغم من أنني، وليس من أدنى الإحتمالات، أن أتوجه إليه بكلمة تسوء أو تحدش شخصه الجميل. بالكاد رباطنا فيه فيض تقدير ما يود. وإذا كان سيظلّ على غضبه لزمّن أطول سوف أشاركه في المصالحة. بنفس تعجّ بالتهالك ناديته.

ردّ وقد كان مكفهراً الوجه :

« ما مُبتغاك؟ »

« الدررشة »

« كلاً »

« أيها الساعاتي كُنّا رفقة »

« قلتُ كلاً »

« كما تشاء »

اعترتني جميع المشاعر المنكوبة. أخذتُ اعتياد أن يكون في شخصه وفرة اللين. دعمه الذي يُعزّي عُربتي ومرضي النَّفسي. ما أكاد أن أستبدله بمضادات الإكتئاب، فأتشرّبه بين لحظة الغضب والسكينة. أستحضره فأهدأ. أمّا الآن، فأنا أرتجف من صديق لم أعهده أنفأ، من صديق فيه حنق وصدّ. من صديق خالٍ من الحنوّ والعطف، من صديق أكاد لا أعرفه تقريباً. العالم فيه من حدّة التعامل حدّ ليس إثره حدّ. وبدءاً من ذلك

الحدّ يحدث ألا أشعر بالرغبة. ضاعف عذابي الماضي بعذابي الحالي، وزايد عذابي الحالي بعذابي الآتي.

كلّ حالات الصدق يُصاحبها إحساس بالغدر.

كيف قسى على نفسي إذا كان يعلم أنني أو من به أعظم من نفسي؟ لماذا أضرم شعلة الغضب بقداسة صداقتنا، إذا كان على يقين أنني مُقترنٌ به بموجب مُقدّس لا تدنيس فيه مُسمّى الصداقة؟ رفقتنا تذوي تحت القساوة المُعلنة، تئنُّ تحت الجمر المُحترق، رفقتنا ترتقب الصُبح والموَدّة واللطف لتفتّح مرّة أخرى. حار المرض النَّفسي بي وأين التّلاقي وما أقسى التّجافي وما أطيب التّداني.

من المستوجب أن أحيطه بمعرفة أيّ في حالة إكتئاب. وأنا نتعالج في مصحّة نفسيّة. كما أنّي مُعترّب، شأني شأنه، كلانا يعيش اغتراب. ولهذا السبب كُنْتُ في احتياج إلى دردشة شخص ما، وأرمني بمنطق مُعاكس: ليس إلى شخص ما، بل إلى شخص مُحدّد، كان هو.

لا أريد أن أكون وحدي رفقة عقلي. ضائعٌ أنا. كبحر لم تطأه قدم. كأرض لم ينبت بها حُب. مثل كون لم يثبت على حقيقة الخلق. مثل سماء جوفاء النجوم.

العالم مكان فظيع، وأنا أعمل على إبراز النور الذي ارتأيته في في صداقتنا على المنحى الكثيف والأخير من الأشياء. إنني أستقرّ على صدق الثبات في زمن الإهتزازات.

سقطت يدي تهتزّ في الفضاء وكان لساني ضابّجاً :
«الصدّاقة تعني التسامح. أنتَ ما أنتَ فيه، ينبغي ألاّ ترصد غيابي
وأنتَ تفتعل البُعاد عني»
خلتُ أنّه يتهيأ، كان ليصخب. وجدت أنّه كان ليصمت.
غضّ الطرف عن زلّاتي، وكنتُ أعمى عن زلّاته. تعامينا عن عيوب
بعضنا البعض من أجل استمرار الصداقة.

ما من إهانةٍ أكثر قسوةً تُوجَّهها لإنسانٍ
من رفضك التصديق بأنه يُعاني
بافيزي

(12)

استنشقت الشمس النارية آخر أنفاسها المتدفقة، وانحسرت مخالباها
الشريرة، غمرها الخوف والضييق، ومحقتها الهزيمة. يندفع صداعي
النصفي ويمتدّ، والتعب يقذفني ويركلني، لفترة طويلة، لدغات باردة
مُحطَّم عظامي، تمائم طرد العين والحسد الملتصقة بجدار عُرفتي، تمدّد
لسانها بسأم وبلادة، لا أدري علام نفعها، ولا أعرف لماذا احتفظت بها
حتّى الآن.

كانت والدتي تقوم بترداد:

«التّميمة سوف تقينا»

كان الثلج قد بدأ في التساقط.

«العاصفة الثلجية قادمة»

كاثرين «تقول ذلك وتجعلني أأخذ خطوات سريعة واثقة. قوس هرّ
المستشفى قوائمه الخفيتين تأهبًا للجري وركض مثل قذيفة لا تُدرك

وجهتها. كان يستثير في دخيلتي شتى المخاوف متى كنت أسير في الممر ذو المظهر الغريب وأطالعه بنظرات جوفاء من أيها مفاد.

حالمات قدماي القاعة التي يتراكم فيها المرضى، اعترضني شخص شاهرًا لسانه في وجه رجل عجوز قاتم القسمات. ويُلقيني بنظرات ساخطة وحمقاء. كل سِمةٍ من سمات الرصانة جُرّدت منه. لم استمرئ هذا الوضع على الإطلاق، كانت الدقائق القليلة الأولى مُرعبة والجو لا يستقرّ على حال. سويعات تترى دون انقطاع. كنت أقرع الطاولة بإصبعي مللاً، لردح من الزمن. أشاهد ساعة الحائط من آن لآخر. يتكدّس برأسي إعياء شديد وأنا أستمع إلى حفيف أغصان الأشجار وضجيج العاصفة التي كادت تقلب المصحّة رأسًا على عقب. لاحظتُ أنّ الساعاتي يُراقبني من بعيد.

كان أحد المرضى يتنقل بيننا ويُطالعنا بشكلٍ مُثير للريبة. يتحدّث بلهجة شديدة: «لم أعد أحمّل هذا». كان صوته مصحوب بصرير أسنانه. تتصارخ كلماتي في وجهه، دون أن أرمش جفناي، مُنبأ إياه بمعسول الكلام، أننا جميعًا اكتفينا من هذا، وأضيف إلى هذا وعلى نحوٍ راعب، بأنّي سأطلع «كاثرين» بنوبته، وبالتأكيد ستُخبر الطيّب «توماس» وسوف يُضخّم من جرعة الدواء، وسيستحيل إلى حشرة مُفَرّزة يتم سحقها دون صعوبة. فيشيخ كُتلة الدهون عني وينكمش في الرّواية. يجدجني بنظرة ماكرة مُقطّبًا حاجبيه. نافراً خُصلات شعره الأمامية. فاتحًا فمه كقرود. يهزّ كتفيه بامتعاظ. ويهمس عبثًا بإيمان راسخ: «لقد اكتفيتُ من هذا»

لا ريب أنه سيصرخ، طوال الليل، بلا انقطاع، إلى درجة هستيرية. ولا شك أن العالم الخارجي أساء معاملته إلى نقطة أنه لن يفارق المصححة منذ دخوله إليها. ربّما يعيش البعض منّا في المصححة بشكل أفضل ممّا لو كان يعيش في حُضن العالم. كنتُ أتطلّع أن أحو الناس العقلاء من حياتي، وهذا ما أتيت على فعله. لا أريد مزيدا من الأشخاص العقلاء. بالطبع كل شخص يعاني من اضطرابات نفسية من حين إلى آخر، أو من عاهات نفسية مستديمة، وهذا أمر مؤكد تمامًا. ولكن العاقل هو من يحتلظ بالناس دون أن يشعر بشيء يثقل كاهله ويحشو على قلبه ويمتص الرحيق من عقله.

دخلتُ في تلاسن مع شخص ما. متى يُساء إليّ، لا يُمكنني الرد. كانت أوجاع رأسي تمنعني من الرد وتجعلني مُتبدلاً ومُتجاهلاً. ذلك أنّ والدي، في صغري، كان يصفعني ويذلني كلّما دافعت عن نفسي في مُواجهة من يسيء لي. أستحضر عُنفه وعجزِي وأجدني دائماً في موقف لا يقلّ عن ذلك. خاطبني الشخص بصوت أجش وأرعن كغول شرير خرج من توّه من حكاية خُرافية كما خرج الساعاتي من حلقة الزمن لغوثي. كان بقامته الفارعة يحيل بيننا وكان عين الصواب. في غفلة، شبّ شجار عنيف بين هذا وذاك، سعى فيها أحدهم إلى جزّ رقاب الموجودين. ونسيّ أمري. حلّت زوبعة من الهستيريا. نظرتُ إلى الساعاتي والذي بدوره ظلّ يُطالعي وكان عليه أمارات الاستياء، ثمّ سحبنى خطأً.

وتهبّ العواصف مثل شلال مائج.

كان ياما كان في قادم الأيام فوجئت بصوت أجش من الخلف:

«أيسوءك أن نتقارع؟»

إِسْتَوَى عَلَى ذِرَاعِي يَنْطَوِي عَلَى الْعَدَاوَةِ. يثور كنافورة صامته.
جر جرنِي بتهيب غريب والأمر كما نُجِّرُ أغانم العيد. لم تتزحزح نظراته
الشزراء عني، تتضارب في رأسي، بارود مُشتعل. كبست أصابعه المُتَيْسِّة
على فقرات رقبتِي. حشرة أنفاسي السَّاخنة آخذة في السُّمُوق. ومُحتاج
الأعصاب زجّ بي خارج القاعة في بشاعة، وتحت أنظار المرضى المُرتقبين
الخشيسة. الغثيان أخذ مني مأخذَه. كلّ بوصة في جسدي ترتجّ. أسناني
وجلة تصطك. دُرْتُ بعيني وكانت أنظار المرضى المُرتقبين الخشيسة
شامته. الافواه تُقهقه. الأصوات مُستراية ومُتراخية. أذوي في الممرّ.
أشرقت السَّماء في حين كان النُّور يتضاءل والظُّلام كان يُضيء. نزلت
أمطار مُتوحّشة. ومتى أخبرتُ السَّاعَاتِي عن هذا، لم يستطع تحمّله ولكم
هذا الغول الشَّرير كيلاً يطعن طريقي ثانية.

تمني الصداقة عمل سريع
لكن الصداقة نفسها ثمرة بطيئة
أرسطو

(13)

دلفت عُرفتي رفقة الساعاتي وخوى صدري من الصّرخات، أنخطفُ
في بؤرة إكتئاب من حلكتها بات لا قعر لها، لم أكن أعلم أبداً أنني سأنتهي
في مُستشفى للأمراض العقلية، أنا الذي مزّقه العالم إلى أشلاء. وجدتني
وحدي، مُحطّمًا، ومُنصهرًا في الظلام. أكفكف دُموعي المتوارية عن
الساعاتي. أنا محاط بالمجهول، بلا أم، بلا أب، وهذا المجهول يُخيفني أكثر،
إلى أقصى حد، الحد الذي تجاوزه وكبرت أثناءه سنوات ضوئية لا حصر
لها، مُنذ أن غادرني نفسي تنبض بالحياة وعادت إليّ نفسي مريضة حتى
الموت. أحمل وجه مكفهر مليء بالفشل.

أخذ القلق يكتسح دماغي. ولم يظّل من متنفس لحنقي سوى أن أفجّر
طاقتي قائلاً:

«أعلم؟، هناك وقت ما، تُختر فيه أن تُغيّر اسمك و الفرار عن موطنك
قدمك»

«على أي حال، لا تقلق يا عزيزي. الجميع سيموتون يوماً ما. الأمر لا
يستحق ما ذكرت»

«كلّ يوم أحصل على المزيد من الأسباب للبقاء بمعزل عن الناس»
«أنت أفضل منهم جميعاً»
شعرتُ بالإطراء.

«على كلّ، ما رأيك بشجار اليوم؟»
«فوجئتُ حقاً! للعجوز قدرة على الشجار»
«ونحن نشعر بالهرم في قمة شبابنا»
«لا تزال شاباً وبصحة جيّدة»

«وهذا جرّاء العقاقير. أتناول مُحَدَّرًا بالكحول لتهدئة القلق في رأسي»
«ستشفى عمّا قريب»

«أنا لا أعرف حتّى ماذا ينبغي لي أن أفعل. أشعر بكسر رهيب في رأسي»

تُثلج براكين مُتوهّجة.. تُثلج بشراسة وعلى غير دأبها. وعلى غير دأبها. وبعد توالي الساعات، وجدتني في حالة تيقّظ، أشاهد السّقف، أصغني لريح مُوفى ديسمبر. لست أدري كم من الوقت قطعت وأنا على هذا الحال، لا أفكر في شيء، كنت أنظر فحسب. فغرقت في موجة من الركوند والبلادة. كان الساعاتي غريق في أحلام تُنسخ بصنيع الدّواء. وابتدأت الهواجس تشقُّ طريقها إلى ذهني.

باشر الفجر بوصال السحاب والضباب.

هدأت العاصفة.

كانت تباشير الصبيحة تلوح شيئاً فشيئاً. جر جرت جسدي المرهق إلى
النافذة فإذ بي أجد الهريجوم بين مقاعد الحديقة بفخر، فجعلت أحسده
على الطاقة الهائلة التي يحوزها للتحرك.

عدت إلى سريري. ففوجئت ب الساعاتي قد استيقظ.

باغتني قائلاً من فوره:

«هل ما زلت تُعاني من الصداع؟»

«كلاً، لكنني أنظر إلى الجدران وأشعر بالضعف الشديد كما كنت من
قبل عندما استخدمت مُضادّات الاكتئاب، أبقى في السرير وألقي نظرة
طويلة على الجدران، تدوم إلى ساعات»

أمل أن يتغيّر شيء « قال»

«وإذا لم يتغيّر شيء؟» أجبت «

«غيّر طريقة تفكيرك»

أخلص إلى التساؤل:

«أولئك الذين يُعانون من مرض عقلي، أيذهبون إلى الجحيم؟»

أجاب:

«كلاً، لا أعتقد ذلك»

غيّرت نصاب الحديث قائلاً:

«راودني حلم غريب»

«أكان حلمًا جميلًا؟»

«لا أستطيع أبدًا أن أحلم بحلم جميل كما لو كنت في عالم آخر من الهُراء، أريد أن أتقيماً وأصرخ، الناس ينامون للحصول على قسط من الراحة، وأنا أنام لأستيقظ في حال أسوأ»

بصورة عفوية والعيون جوفاء، انفجرت بداخلي حاجة قُصوى، تحنني لإفشاء أساي. شرحت للساعاتي بكلمات علفت في حلقي، كيف أرغب في الدراسة والعمل والكتابة من الصّباح إلى المساء ولا يُمكنني فعل ذلك. أنا لست مثل الآخرين. الناس في الخارج أقوياء، ولا يتعبون أبدًا. لا أعرف كيف يجدون القُوة. كما أنّني أعاني من آلام الظهر على الدوام.

«لا أحد يُساعدنا، هل تعرف ذلك؟ لا أقارب ولا أصدقاء»

قال وقد فتح عينيه على اتساعهما:

«المساعدة غير مُجدية. عليك أن تُساعد نفسك»

«لكنني في حاجة إلى الحب والدعم»

«لا أحد يُقدّم مثل هذه الأشياء مجانًا»

«حتى أنت؟»

«سأعطيك إياها مجاناً»

أخبرني لاحقاً، على الرغم من أنني لم أسأله من ذي قبل، أن زوجته نصحته بدخول مصحة نفسية، زيادة على ذلك لا تزوره إلا لماماً. ما كان يجدر به أن يضع قدمه في دائرة الزواج. هذا الأمر دمّر دماغه بكل المقاييس. لفردته، تنبّهت أنه رجل له كبرياؤه الخاص. بفائض المصادفة. هناك بريق في أجزاء وجهه. بريق ينفجر بإكسير الحياة. لو اخترقت ما في بواطنه لوجدت أنه لم يكن راغباً حتى في إلقاء السلام. قادتته تجارب الفقد إلى نشاف آبار عاطفته. خبر فواجع فخرج من دوام الحب. قومت هزّاته وعززت ثوابته. بريق عينيه يقول: «كمائن مُفجعة خبرناها خبئناها في مكائن حسابية قصية الشفاعة». أخذ الحب مأخذ الفن فأخذ الصدمة مأخذ التوبة. كان قضية إنسان، قلم، أدب. قسراً، تجرّع نيكوتين فراق خالد. ومع ذلك ظلّ يمتلك حساً مركزياً في كيفية التواصل والتعبير الرقيق. في معزل عن محدودية الأحاسيس. كان ثابتاً، لطيفاً، ظريفاً. وأنا كنت منطفئاً، خامداً، باهتاً جنائزياً. على عجل بالموت. تساءلت في سريري: «ما الذي يصنع رجل كهذا في هكذا مكان؟» كذاك الذي يشترك بواقع الأدب. لا يخصه أحداً سواه. ما كان من أحد، بل لنفسه. طليقاً كحلم. ما حلّ به خطأ ومكانه الحالي فداحة. مصقول بالتنازل.

بُعث من رحم الماراة. ابن التجارب ووليد الأدب. بين ذاك وذا راودني شعور عميق وقوي بأنّه شخصيّة روائية أطلّت طريقها بين الكلمات والسطور والصفحات، إلى أن أضحت خارج النصّ وفرت من برائن الكاتب. كان من رواية وكُنْتُ كاتبًا من حدس يُبصر بفطرتّه. عشوائي هذا الرّجل. انفصلاً شهماً. قاموسه المكابرة. يترك في الرّائي جرحاً لا يلتئم. من كان له مكنة لمجالسته مرّة فريدة ولم يحظْ بلقيانه ثانية. يُسرطنك بسطوة سرمدية. يُلقيك في مرمى التعب. يُسبب نوبة لحظيّة تستحيل إلى خيبة أبدية. يُربكك في تضليل ينفجر. تتوسّم فيه ضياعك. تُنيله من حياتك وقتاً يأخذ عمراً. يمتصّ كثيرك على غير قليلك، على غير قياس ظنونك. في طابور ضحايا الزمن تتقصف أوراقك. كان صدمة كونيّة تزجّك في متاعب مُتصلة بدار الفناء. كان هزّة عاطفيّة قاضية. رجلٌ من مطر. رجلٌ من كبرياء. في سنّ التخلّي. لا يسقط. يجعلك تنوّه في رصانة ابتسامه جارفة. يُعزّز نفسك إلى حد شعور الهلاك به. بعد مرآه، لا تعرف ماذا تريد بعد الآن. يُنسيك من كُنْتَه قبل مُلاقاته. يُنسيك توقيتك وذاكرتك وذكراك. كان مُصادفة لا تُنسى، لا تُمحي. ورطة عُمر. وزائر تنتظره مدى الأبد. كان مُقابلة حظ وضربة قلب. مُكافأة الوقت. أنيق الإحتمالات ومُهيب المُصادفات. نكالا بك يتركك تُبدي مُحاوله الوصال من جديد. في حضرته، تخسر ذاتك شيئاً فشيئاً. كما تفرّ الحياة من قبضتك، تفرّ حواسك من برائينك. بمقدار ما تكون ممتكاً بمُشاهدته، تجدك مُجوّفاً إلى حدّ عدم الوجود. نصب ناظره، يطول انقطاعك عن نفسك. كان

رجلاً عصياً وأبى النوال. تتشهى عدم حدوثه في حياتك وفي الآن ذاته محمد القدير على حدوثه. عزاءك المفرد في الموت. كونه سيقطني أثرك في النوم. كان قائداً في معسكر لن تطأه الحياة. نفسه مزار الضالين. كان قيد نفسه. صوته ذا نبرة بزحام فراق مُفجع يبعث على الالهفة والأبد.

مُستاء أجمع انشطراتي. أحنّ في تغيير الديانة. هذا ما اعتقده. مُتفحّصاً تحطيمي سأندكر دائماً ما وقعت فيه. ثم واجف القلب ألتمس طريقي من عقيدة إلى عقيدة عساني أجد هروباً مما ابتليت به في التفكير. هذا الشيء البديع. مُطرق الرأس، وفي اندفاعي الشديد أمضي بخفة، أتصرع المغفرة، لأول مرة، نصب ناظري الإمام المستنير، والبابا العليم، والكاهن التقي وجميع الحمقى الذين كنت أحنّ عنهم. أولئك الذين يحتقرون تنوع ما وراء الأشياء. تفرح وجوههم بما أتيت على التفكير به ويشعرون برضا النفس. يتمثل اشتمزازهم لي بالنظرات. كل العيوب يُبصرونها في نفسي وعيوبهم عنها متوارية. أيهم سيدينني بالجرم الأكبر؟ ثم سأحدثهم، مهما كنت صامتاً، عن نزعتي بأن أكون في غنى عن المحرمات. وإذا اقتضت الضرورة فلن أخذ أي مذهب مأخذ الاعتناق النهائي. ولن أبحث أكثر مما بحثت. فلن يكن لتعبي مُستقراً. فلا شيء من شأنه أن يُنيلني طمأنينة مطلقة. ولا طائفة تمحو معصيتي. سأشبح بوجهي عنهم. ألا يكفيني عقلي المكروب؟ ولا شيء غير ما قلت. ليست بي رغبة في الحياة على الموت ولا الموت على كاهل الحياة. فجأة، وجدتنني لا أعرفني. أنا لست كما اعتدت أن أكون. سُخطي بازعاً. الخضوع الذي يعتمد على الوجود

الغامض. وعلى عاتقي طبقات من الخطايا. أتقاذر إلى أدنى أعماقي التي لم أتطرق إليها فيما سبق وفيما تلا. وفي ظلال الرغبات الراقدة أعترف من طبق الحسنة وأرتاع. صوب التحرر والسعي للخلاص من روعي الرائدة أغرق ولا أموت.. مُنطلقاً كالسهم أغرق ولا أموت. أركض بين دوائر النار المحترقة. رأيت الجزع والتزعزع. زُغت عن دربي الخاص وأي فضيلة خلقتها؟ انقطع التفكير السوي عن عقلي وانقطع كلامي عن حنجرتي وانقطعت عن نفسي. أنفاساً عميقة أخذتها أكثر من أي أنفاس مضت. أنا من بدأ في طريق طويل من التحقق والانقطاع عن الأسباب. شاحب مثل الكمثرى النحيلة والهامدة. بينما بذور المحرّمات تنبت وتعلو وتُسي باسقة كشجرة زقوم تُدمر كل من يقرب من ثمارها. تعضّ واحداً تلو الآخر ولا تشعر بالرضا عما لديك. كان من المرجح أن أبلغ العالم العلوي بزيف ألوانه لكنني وصلت إلى العالم السفلي بكل حقيقته. وفي مشواي الأخير سأغتسل في حمام من بُر كان. أنصهر وأتجدد.. أنصهر وأتجدد.

أطفو فوق ضباب الوهم. لم أتعلّق بأحد مثل ما تعلّقت به. انقشعت أوهامي. كل شيء كذب. تتجلّى لي الرؤى. حواسي مُلتبسة. ألا ليتها كانت مُتصلبة خالية من المذاق والإدراك والانجراف نحو ما يُوقظ في أعماق الذات. لم أعد في سلام مع نفسي. لست متأكداً مما تبقى مني. لا يمكنني الاستمرار في هذه الهشاشة لفترة أطول مما تحمّلته. نحو إنكار الشعور تنتهي دون معرفة نهاية الذات. فاقد الشعور خديعة اصطفتيتها

كمخدرٍ لتهدئة تمرّقي. أصبّي لنفسي المعدّبة، ولا خيط يقودني إلى الخلاص
أو الهلاك الكامل، فأستريح. غاضبٌ أنا، كذلك الذي سمّم نفسه قصد
الانتحار، فنام واستيقظ في وقتٍ لاحق. تراءيت أنا مثل شيء محال أن
يكون.

خلال ذينك الأسبوعين، مُطلع على ما يحدث في نفسي، قلت للطبيب:

«لا أفهم ما بي؟»

«أنت تبحث فيه عن الأبوة المفقودة»

«لا أفهم ما بي؟»

«أنت تبحث عن الأمان، والحنان الذي حرمت منه؟»

«من أنا؟»

«سؤال ستجيب عنه بنفسك»

«إذا فشلت؟»

«ستبقى ضائعاً إلى أن تجد إجابة»

وشرح لي الطبيب بشكلٍ كافٍ أنّ الطفل الذي يفتقر إلى صداقة والده
يلجأ إلى صداقة من هم أكبر منه سنّاً ليكتسب منهم الخبرة والحكمة،
ولا يجد لغةً مشتركة مع من هم في سنّه وهذا ما يُسمّونه في علم النفس
بالبحث عن الأبوة. أجد صعوبة شديدة في التفكير فيما يجب القيام به.

أعدّه أبا على الرغم من أنّ والدي قد فارق الحياة. اعتبره أخاً كبيراً حتى لو كان لديّ واحد. اعتبره عالماً كاملاً. عالم من الأدب. ذات مرّة، قطعت وعدّاً له أنّه عندما يأخذ دوائه في الوقت المحدّد، سأواظب على أخذ عقاقيري أنا الآخر. عندما يكون على ما يرام، سأكون كذلك. أبلغني عبارة أعطيني أملاً كبيراً في الاستمرار في حياتي. أخبرني أنّ أماننا سنوات كثيرة، سنسرقها قسراً من الحياة.

في أعماقنا مدافن مخفيّة ومظلمة ومترابطة، من المستحيل كشفها. وحدها الصّدف تُلقِي بأذرعها في مرمى ما خبرناها يوماً، وتحديدًا في ما سيتجلّى لاحقاً. قد يقول قائل: «أرغب في الامتناع عن الشعور. أن أصبح بلون الرّماد. لا مُنتمي. لا مُنتظر». ثمّة سانحة لهذا المحلوم باللاشعور، لا بأس بها، وهي أن يستأصل عصب الشعور وينقضي الأمر. بعد عمراً ونيقاً. في ذات لاشعور، وبكل ما في الكلمة من معنى، قد يقول نفس القائل، بعد أن يكون قد حدّد نيّته: «أريد أن أشعر. أن أفرح. أن أبكي. أن أبالي». لم يعد له في العاطفة. كالإسمنت في مكانه قد تصلّب. لقد وضع عينيه في موازاة المحسوس باللامحسوس والمرئي باللامرئي. لامس مسرّاته ولم يكن جدلاً. الموت حصد أحبّاءه ولم يتأسّى. خلّقنا لنشعر حتى ننزعج، لنضطراب. لنختبر أيّان ما نُصادفه. الوقت ضيقٌ ومُتقلّصٌ ومرأوغٌ. في مرحلة ما سوف تستنفد مشاعرنا ولن يولد أي معنى في أعماقنا. حتى يأتي

هذا الوقت، ها نحن نشعر، ونحب، ونبتهج، ونتعاطف، ونحوّل قلوبنا
نحو ارتباك حواسنا. ما حدّده لنا القدر هو صدفة جميلة لمداواة أنفسنا من
ثقوب طفولتنا.

صداقتنا تُشبه التجربة الروحية لجلال الدين الراوي وشمس التبريزي.
كُنّا متفاوتين في السن. وكلانا نال منه الألم. وكلانا يُلهم الآخر.

والعيد مُستمر، العيد يبقى، والأطفال فقط يتبدلون

عادة السمان

(14)

قطفتُ زهرةً وشكَّلتُها خلف أذني.

ها قد أتى عيد الفطر إذن.

قُلْتُ للسَّاعَاتِي على نحوٍ ملحوظ:

«إذا كُنَّا في الوطن، لعائدتك بعُلبَة حلويات من المَحَال الأثير»

ردَّ بحماسة فائقة وكان ينظرني من زاوية عينيه:

«اعتقدتُ أنّك بلا عاطفة»

بتعبير أدقّ العيدُ في الغُربة لا يطرق بابنا، لا يستحضر أنّنا في ترقبه حتّى. كنتُ أنفقه بمُفردي وأذهب إلى البحر. وإحقاقاً للحق، في الوطن، العيد لم يطرق بابي على الإطلاق. وطني غُربتي فيها. لقد فقد العيد قُدْرته على جلب البهجة، ولم نعد سُعداء بقدومه، ولكن عندما يأتي فإنّه يزيد من مُعاناتنا. لم نعد نحبي الأُقارب أو نزورهم. في كل عيد أخاف الأُقارب قدر الإمكان. أستعين بكل الأعذار لتجنّب الاتّصال. والأُقارب لا يجدون صعوبة في تمرير الإهانة، بل ينقلونها إليك بلباقة. في العيد كلّنا نبحث عن أشياء لم تعد موجودة وعلى الرغم من هذا، مازلنا نبحث عنها. وعيد

الأضحى لا يتجاوز حدوده إلا لملء البطن المكتتلة من الدهون الزائدة. حيث نبدأ في افتراس لحم الخروف إلى أن ننتهي منه كلّه ثم نصل إلى آخر جزء منه وهو الرأس ثم الأرجل. فالخروف لا يسلم منه شيئاً، فنحن بارعون في تجزئته ونُشغل آليات الخبث الأخرى فيه. كما أننا نفترس دماغ الخروف ونعتبره شهياً، فثمة من يستخدمه لتحضير «عجة المخ». ينتظر الكثير من الكبار يوم العيد لالتهام خصيته. غالباً ما يقولون إنه يضخم قدراتهم الجنسيّة، لذا فهم في الليل وحدهم مع زيجاتهم ويلعبون لعبتهم الأثيرة. أُنهيّت من سرد عيد الأضحى التونسيّ على «كاثرين» المسكينة في حين ترمقني بنظرات مشدوهة والصدمة تعلو وجهها.

غصت بالبكاء قائلة:

«العيد عندكم، ليس فيه أي شيء طبيعي»

شدّدتُ في الآن عينه:

«دعينا نقضيه خارج أسوار المصحّة»

بعد محاولات عديدة، وافقت «كاثرين» على مضمض، على الرغم من أنّ ذلك كان خطيراً للغاية بالنسبة لها، وإذا اكتشف الطبيب «توماس» ذلك، فمن المؤكّد أنّه سيطردها. وعدها الساعاتي بأننا سنخرج ليلاً. سوف يعتني بي ولن يحدث شيء ولن يُلاحظنا أحد.

صافحها على نحوٍ غير مُحكم وكان واضح اليقين:

«وعد»

وبمناسبة يوم العيد أحضرت لنا «كاثرين» كعك الجبن وبعض المعجنات المعدة منزلياً. كانت من الرعيل الذين يرون الأشياء الجيدة في الحياة ويغضون الطرف عن السيئ منها، وأنا نقيضها في كل شيء. هذا جعلها صديقة بدلاً من مجرد ممرضة. كنت مفتوناً بالأم المفقودة التي لم أختبرها من قبل. أنا مليء بالتعب وهي مليئة بالحياة. قلبها ينبض بالحياة وقلبي يموت من الحياة.

دائمة الابتسام، أردفت بعد أن عقدت حاجبيها:

«الأكل يصرف المرء عن الآخرين»

احتضنتها ومضينا جميعاً إلى الحديقة. أطرقتُ برأسي زمناً لا أدركه. صعدتُ نظري إلى حمامات. أغمضتُ عيني كأنهارٍ تجمّدت. كان الساعاتي شبيهي، توأمي. كان خارج الوقت الذي أدركه. إنه ضابط الوقت الموعود. ما الأمر؟ كان هو، نفسي أنا.

نظر إليّ الساعاتي نظرة استغراب.

«ماذا عني؟»

ندت مني ضحكة خافتة:

«تعمّدت ذلك»

«سلمني بعضها. أنت تتصرّف كطفل»

قُلْتُ «وما الغريب في ذلك؟»

دنت «كأثرين» مَنِّي وفي حيرة من أمرها تهجّمت بالسؤال:

«Vous parlez de quoi?»

أخبرتها أننا نشتبك على فطائرها. ترجّجتني أن أقاسمه إيّاها.

أجبتها وأنا أنأى بخفّة عن الساعاتي:

«إذا عرفت ما كان يقوله عنك، فلن تعطيه الفطائر بعد الآن»

على عجلٍ، سعى الساعاتي لإسكاتي بينما يصيح:

«Ne vous inquiétez pas nous sommes des imbéciles heureux»

هرولتُ مُشيحاً عنه وقد كان في أعقابِي، محاولاته لأخذ الفطائر مِنِّي واهية ومُضحكة في آنٍ واحد. تشابكننا بالأيدي. أوجه المفارقة بيننا: أنني مُبرمج، خطّة، في إطار، نمطي، وكان هو زائغاً، فوضوياً، ومتخارجاً عن الزمن المألوف. ومن ثمّ أراني ألبوم صورهِ. في رصيده صورة تمّ التقاطها في لحظة ينظر فيها إلى الكاميرا أثناء الدردشة مع شخصين. نظراته مشدودة تُجاه الكاميرا وفمه على منحى «شُتْ». يتسرّب بطقم أزرق ليلي وقميص أزرق سماوي. أحسبُ الآن أننا نتشاطر ذات اللون المفضّل. وهو الأزرق بدرجاته.

من انبثاق الليل، قفزنا إلى الخارج دون أدنى تفكير. ومهنا في نيس العتيقة، كأنها مرّتنا الأولى. بين أركانها وشوارعها ينسدل الليل بستاره الحالك، تتخللها أعمدة مُنارة خافتة، وسيلاً من السرائر، وبطريقة من السَّاعَاتِي، الإبهام بالوسطى، تتسمّر عقارب الوقت. يسقط الحد الفاصل بين الزمان والمكان. ويتصلّب البشر في اللافضاء. تحت وقع الحرّية أنظرُ قاع عينيه وقتاً. ما أرقّ أهدابه المُسدلة شغفًا. ألتذّب تينك العينين. تومضان زمنًا. ترتحبان وقتًا. تنزان أبدأ. ومن توهج سكرات الليل، أقول على أقساط ودُفوعات كلمات أصيلة، فصيحة، طيّعة، غائرة، قانعة، مُنصفة. ماثلة بجبال القلب. ما أجل الحياة ليلاً. أنفاسنا لاهثة تعلو وتسقط. قلب يخفق ويتراعى. بعثرة جامحة. لا نعرف للحرّية قيودًا. إغواء وتضليل. وبلغنا من الإثارة عتياً. بين الركض والاستزادة لم نترك شارعًا إلا ومررنا به. نملك ترف الوقت. أحس أن خفة الوقت تُقدّر بعقد ونيّافًا. على محمل اليقين وبمأخذ الحزم، لفرادتنا، كُنّا التفاتات الزّمن وقلة الصّادقين في شريط المدينة. من ثمّ استقطبنا أنفسنا نراقص ونتطارب إلى تيه الأزقة. إيثار ومعاكسة ومُشاكسة. فوضوية اللهفة. نحن ما كُنّا أنفًا. نحن رهان اللقاء. لا شيء من شأنه أن يطيح بنا كوننا معًا دون أصفاد. نفعل كل شيء عن طيب خاطر. وعلى الترام، استقرّ أنا ناحية النّافذة، بإذن منه. وتفرّس سويًا بالأضواء المُنتشبة والتي تسير بين الطرق. نتّجه نحو البحر. نركض بخفة الليل. نميّط أهديتنا ونطلق أقدامنا على الرمال الدافئة التي يترابط القمر عليها. نفرش الشاطيء. نرمق السّماء بنظرات من كاليات ومحدّدي.

أتون السعادة طبقنا الأساسي. ثمّة شيء لم أستطع أن أحسبه إكتسحني ودونه لا أريد شيئاً. ولنوايا المصادفات رأيي آخر. صداقتنا أحد أوجه الأبدية. الصداقة أغنية عُرِفَت لأول مرة أو زهرة نفتحت. مثل كمنجة لم يفهم ذويها نواتها، فهمني فهمًا حدّ الألم. كغيمة ماطرة ارتأى أجزاءي وقرأ بواطني. أنا الغريب الذي ليس له مذهباً. ارتميتُ بكلي على الرمال. كما يرتمي الطفل بين الثلج لأول مرة. جعلتُ رأسي تنزلق وتحتسّس حبات الرمل. « يا ربّي أعطني من عندك أماناً لا يرجّه كدر وأخذاً لا ينقطع » وبهذا الإنسجام الذي لا يُوصف مع السماء قلت.

المُعلِّم المتواضع يُخبرنا، والجيد يشرح لنا،
والمتميز يبرهن لنا، أما المُعلِّم العظيم فهو الذي يُلهمنا
ويليام آرثر وارد

(15)

السَّاعة تومئ إلى التَّاسعة صباحًا. الشمس مُضطربة. ينزلق لسانها
الرهيِّب بهدوء إلى العُرْفَة. استيقظتُ في مزاج جيِّد. السَّماء في هذا الصباح
صافية. الهواء ليس ثقيلاً. والسَّعادة تلوح في الأفق. شيء فريد أن يبدو
اليوم هادئًا، هل اختلطت ذرَّات المورفين بعناصر الهواء؟ أم أن هناك شيئًا
مريبًا حدث دون أن يلاحظه أحد؟

عمدتُ والسَّاعاتي إلى القاعة الكبرى، على أمل العثور على طاولة
مُنفصلة عن الجميع. كنت أدخل الأماكن العامة وأجد طاولة بها كُرسيَّان.
اعتاد القدر أن يخدعني. كثيرًا ما كان يسخر من وحدتي.. من تفردتي.. من
غرابتي.. من ابتعادي. لكنَّ الأمر مختلف الآن. انشغل السَّاعاتي بقراءة
كتاب. أتنجَّب التحديق في الموجودين. لكم كانت نظراتهم تُزعجني.
أخذت أفرد أوراقِي. وأنا في حالة من الارتباك السَّاحر. وهل يُصبح
الارتباك لونًا من ألون الجمال؟ أنا مزيج من الغرابة والصقيع والارتباك.
أتى أحدهم من الخلف. ذلك الأحمق الذي اعتاد أن يقول أنا لم أعد أتحمَّل
هذا. لا يني عن مُضايقتي. وجه لي مرَّة اتهامًا غريبًا، ألا وهو أنني سرقتُ
أحلامه وأعطيته كوابيسي.

وضع ورقة على المنضدة وقد قمع خوفه:

«قائمة الطلبات، سيدي»

أعتقد به سُخْفًا. كان ذلك يُضايقني بشدّة. لم أعد أرى من داع من بقائي. أخذني الساعاتي على جنب. وأعلمني أنّ هذا الشخص مريض بتعدّد الشخصيات.

«يجب أن تكون سهل التعامل معه»

«هذا الأمر جليّ»

بعد لحظات ولّى عائداً وسألني عن طلبي. اعتذرت له بحجّة أنّ ذهني مشغول ولم ألقِ نظرة خاطفة على القائمة بعد.

«احضر لي قهوة وسط من فضلك»

استوقفني مُستنجباً:

«أنت عربيّ إذن»

«هل ألوح مستشرق إلى هذا الحد؟»

«ألم تتحدّث معي بالعربيّة تواءً؟»

«أصبحت اللغات فوضويّة في رأسي»

«أنت كاتب؟»

«كلا»

قلت ذلك بينما أفرد أوراقي. انصرف وتركني. أكتب كشكل من أشكال العلاج. بمعنى آخر، لتحرير طاقتي المكبوتة. كُنْتُ أَكْتُبُ عَنْ الْمُجْتَمَعِ الْفَرَنْسِيِّ الْمُتَحَضِّرِ. لِأَنَّهُ يَعْنِي جَيِّدًا أَنَّ الطِّفْلَ عِمَادَ الْأُسْرَةِ، وَالْأُسْرَةَ قِوَامَ الْمُجْتَمَعِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ لَا يَخْلُو مِنْ مِظَاهِرِ الْعَنْفِ وَمِليءٍ بِاللانتهاكات في حق الأطفال. ومع ذلك، فإنَّ المؤسَّسة تدرِّك ذلك جيِّدًا وتُراقب الأطفال وتعتني بهم لدرء عواقب المعاملة غير العادلة من قبل الآباء غير المؤهلين لإنجاب الأطفال. أشعر أنَّ ما أكتبه سبق أن قرأته في الروايات. ولا أفكار لي. لكن كل هذه التخمينات مجرد أوهام كما نقل لي «توماس». ما خبرته جعلني أشكَّ في قدراتي. أردتُ إِبَادَةَ الْوَقْتِ فِي كِتَابَةِ رِوَايَةٍ أَنْتَقِمَ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيَّ، وَخَاصَّةً هَؤُلَاءِ الْإِدَارِيِّينَ بِالْكُلِّيَّةِ. كَانَتْ لَازِمَةً أَنْ أُتَحَرَّرَ مِنَ الْمَاضِي مِنْ خِلَالِ الْكِتَابَةِ، لَكِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي أَنْتَقَبِلَ نَفْسِي وَلَا شَيْءَ أُتَحَرَّرُ مِنْهُ.

رفعت بصري من خلف النظارات، جذبتني نظرات امرأة تلوح في أفق الثلاثينيات. كانت تُتَابِعُنِي بِعَيْنِ حَرِيصَةٍ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ. تَرَقَّبْتُ تَقَلُّبَاتِ مِزَاجِي. تَقَلُّبَاتٌ مُعْلَنَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. شَعَرْتُ لِلْحِظَةِ أَنَّي عَارِي أَمَامَهَا، وَشَعَرْتُ أَنَّهَا قَدْ لَاحِظَتْ غِرَابَتِي وَبِرْدِي وَارْتِبَاكِي. سَقَطَتْ قَطْرَاتٌ مِنَ الْعِرْقِ مِنْ جِبْهَتِي، لَا أَسْتَطِيعُ تَحْمَلُ أَيِّ شَخْصٍ يَرَاقِبُنِي. أَدْرَكْتُ أَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ. هَذِهِ هِيَ مَلَامِحُ الْعَرُوبَةِ، الْعَرُوبَةُ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ التَّجَسُّسِ. نَتَوَقَّعُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى حَيَاةِ بَعْضِنَا الْبَعْضِ. نُنْشَاهِدُ أَعْمَالَهُمْ

واهتماماتهم. نراقب حياتهم وتبدو أجمل من حياتنا. لأننا لا نملك حياة نعيشها.

صوّب لي الساعاتي ظنوني:

«كلاً، ليست عربيّة، لكنّها مُصابة بجُنون العظمة»

بدأت أشعر برغبة مُستمرّة في التبول. انزلقت من القاعة لأنجذب تلك النظرات الشاخصة، وتوجّهت إلى الحمام.

قبل أن أُغادر، وجّهت لي تلك المرأة كلامًا:

«أنا أفضل منك في كل شيء»

«أغربي يا صاحبة الوجه الشاحب»

جُبتُ أشتات الممرّات المليئة بكومة من الوجوه الغريبة، هذه الوجوه مشبّعة بالأرق، وهذا الأرق ناتج عن أدوية ليليّة. أتت إليّ امرأة في الستينيات من عمرها وطلبت منّي بحُسن نيّة وبفرنسيّة أصيلة أن تقرأ سُطور راحتي. ووضعت قبلة عميقة على جبينها.

قالت مُستاءة «لن تكون في الثلاثينيات من العمر»

نعرف بأننا نحتاج أسباباً أقسى من العقل والمنطق لكي نبرّر الهجرة،
أكثر انفعالاً، أكثر سطوة وحضوراً
بُثينة العيسى

(16)

الانتظار سجن، على غرار كل ما عداه. تمرّ الأيام مُتسرّعة على جري
العادة. إن جاز التعبير، تنخرم الأيام بطريقة سلطوية. أيام الأحاد تلهو
بنا في فراغ الوجود. لا شيء نفعله. مارسنا الرياضة في الصباح الباكر، ثمّ
شاهدنا فيلمًا جعلني أكثر استياءً من العالم الخارجي. وقتتُ أمام النافذة،
بين المكان واللامكان. أمسح ريش الحمامة في حنو.

«اذهبي إلى الوطن وبلغيهم منّي السلام»

وأستحلفها ألا تخبرهم أنني أعيش في هشاشة، وأنّ الفشل حليفي.
وإذا إستعلمها أحدهم عن أخباري فلتقل له بأنّها قطعت علاقتها معي
بعد هذا السلام. كيف يمكنني أن أفهم ذوي فشلي المؤسف في وطني وفي
أوطان الآخرين؟ هل هناك أي شيء آخر، غير الترقّب، يُمكنني القيام به
بعد هذا الإخفاق؟ لمن أعوذ من هذه الهزيمة؟ يا لخديعة القدر في نفسي.
لم يتركني الوطن وشأني إلا وكسرتني. هنا هو الاغتراب يدفني دفعاً إلى
ذات الحصيلة؟

لا أشعر أنني بخير. لا أستطيع تحمّل المرات المتكرّرة للذهاب إلى
الحمام للتبول.

تراكم التعب في ذهني ريح عاصفة.

وجدني الساعاتي في حالة رثّة، أخطو بتناقل وكلّ شيء فيّ توافيه المنية
ولا يموت. يتوالد الصّجر في أعماقي. لم يكلف نفسه عناء السؤال عني،
لأنّ ذلك لا يهّمه طالما أنني صديق جيّد ومخلص له. ومع ذلك، فاجئني
بسؤاله.

«لماذا غادرت؟»

أجبتّه بمرارة، وهو مستمر في متابعة تقلباتي وهزائمي وإخفاقاتي:

«بحثاً عن الذات»

«ما لم تجده في بلدك. لن تجده في بلدان أخرى»

ناقت نفسي إلى أشياء كثيرة منها الوطن. أحنّ إليه في سابقة جديدة
لا عهد لي بها. ولا أعرف سبب ذلك. الحياة في الوطن مميتة، قاتلة،
لمن يستكفون بذواتهم وينغلقون في قوقعتهم، كتركة تماماً. وأولئك
الذين يعتزّون بالأحلام ويسعون لتحقيقها، يُفاجئهم صائدو الأحلام
ويحطّمونها. وعلى نقيض الوطن، لا يحمل الغرباء هنا ضغينة ضد
أحلامك، فهم يُحفّزونك لأنّهم لا يملكون أي صلة بك. حكالي عن
اللحظة التي جاء فيها إلى نيس. كان يرتاد الفنادق الرّخيصة. النّوم على

بطانيات كريهة الرائحة. يستمع إلى الاشتباكات في الشوارع المرتجفة. يصخب في أذنيه مزيج من نباح القدر وعويل الأعوام المضاعة ونشيج السائرين. كان يقضي طوال الليل يسحب سيجارة ويتعثر في ذلك السرير المتعفن. يُبدي محاولة تشغيل التلفزيون في لحظة يأس وسأم. يفعل كل ما في وسعه. يلطمها على رأسها وجوانبها وما بذى فائدة. فيضجر ويترامى إلى الفراش مُتظاهراً بالنوم. والقرف محتبئ في عالمه.

كانت العاصفة قد بدأت عندما نقل لي شعوره بمُغادرة هذا المكان.

«يجبُ عليك أولاً إكمال العلاج»

وكان له رأيٌ آخر:

«أشعر أنني شُفيتُ»

عن نفسي لم أفقد شعوري بالتعب حتى الآن. كل خطوة أتخذها في طريقي، من شأنها أن تؤدي إلى حفرة لن تظهر إلا بعد سنوات. وأنا مُتيقظ في خطواتي الحالية. ولستُ على شيء من الاستعداد لأقع في نفس الفخاخ. يُمكنني إقتضاب الألم النفسي في واقعية أن كل إجراء تقوم به مؤلم. حتى فتح الباب يؤلم. يسودك شعور أن أعصابك عارية مثل الأشواك والحروق، وبمجرد أن تفتح الباب، حتى يغشيك الألم الذي لا يُحتمل. لن تستبق اللحظة التي ستنفجر فيها بالبكاء ذلك لأنه لم يعد بإمكانك فتح الباب. ما أدراك عن إنقطاع التفكير وعدم انتظامه.

«لي أن أشعر بضغط المواصلات بمجرد خروجي من هنا»

«يجب أن تحب حياتك كيلا تتعب منها»

«لا أستطيع أن أحب حياتي»

«لأي شيء؟»

«لأنها لم تحبني»

«توقف عن قول ذلك. ليس صحيحًا. اعطها فرصة»

أخذ يُشاهد التلفاز. أنطرحت على الكتابيه، ودثرت وجهي بالسادة. مرّ وقت. مرّ حين طويل من الزمن. وشيئا من عبث. وشيء عميق. بدوت زائغ العينين من رجاء يبكي. وددت أن أصرخ من عميق أعماقي. في الواقع، لم أكن بحاجة إلى شخص أثر معه، لكنني كنت في أمس الحاجة إلى شخص يجلس معي في صمت. هل من الممكن كسر هذا الاكتئاب؟ أم سأعالج منه بقيّة حياتي؟ سحبت الوسادة عن وجهي وعانقتها. تجاوزت عقارب الساعة السادسة مساءً. ألفيته يغرق في نوم عميق. لم أشأ إيقاظه. جلبت بطّانية ولففته بها. جعلت عيني تنظران إليه وسرت عيني بما لم يقال. يعنّي أن أكتبه. يلدّي أن أقرأه، كونه أتى من أقانيم الزمان. ليس من هذا العالم ويتصرّف في الأمور بتؤدّة وروية. يفعل الأشياء بالمداولة والسرد. غير مؤرّخ ولا آجال لوجوده. لست أرى ما يجيش بأعماقه وفي وسعي أن أتمسه بأعماقي، إنّنا توأمان الدهر أزعّم أنّه

شَرْحًا حَلَّ بِيوَاطِنِي لَنْ أْبْرَأ مِنْ وَصَالِهِ، لَنْ أُشْفَى مِنْ سَكْرَانِهِ، نَاهِيكَ
عَنْ صِدْقِهِ الْعَذْبَ الَّذِي تَلَبَّسَنِي. كُلِّي بَرَاءَةَ الصَّدَاقَةِ فِيهِ. وَالْفَجْرَ يَنْبَلِجُ
كَالْمَعْبَرِ الْمُشَعَّ مِنْ تَلَاقِي النَّفْسِ بِمِثْلِهَا. بِهِ وَجَدْتُ تَحْوِيرَاتَ جَذْرِيَّةٍ
فِي نَفْسِي. فِي زَمَنِ الْخُسْرَانِ وَالرِّيحِ الْوَاهِي، أَعْتَدُّ بِظَفْرِي بِهِ. لَا يُنْسَبُ
الْأَشْيَاءَ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مُلْكِهِ. كَانَ الْعَالَمُ كَثِيءٌ عَصِيٌّ عَلَى
الْفَهْمِ وَكَانَ فَهْمِي الَّذِي خَبَّأَتْهُ الْمَدِينَةُ.

واستغاثة العصفور في الظلام حين بعثرت الأمطار عشه

ليلى بعلبكي

(17)

عاودني ألم البول ثانية. كان مصحوباً بالدم. أشعر شعوراً مُفجعاً بالتمزق. لم يُصدّقني «توماس» في البداية، تمامًا كما لم يصدقني عندما نشأ ألم أسناني، لذلك أجريت بعض الفحوصات. كان البول يحتوي بالفعل على الدم.

«لديك بعض الرمال بمثانتك»

صرف لي حفنة من الأدوية. لقد مرّت عشرة أيام ولم أشعر بترف الشفاء. أعطاني مُضادًا حيويًا. تحسّنت قليلًا ثم عاد الألم. لا ينشّق عني. أحطّم جداره دون جدوى. كان الألم رهيبًا وعقبًا. لا أستطيع وصف ذلك. كأنني أحمل بداخلي بُر كائنا أهوج وعنيف. أتبول أكثر من أربعين مرّة في اليوم. كنت أتألم بدون تبول. جعلني الألم أبكي بشدّة وأرغب بالموت. لا أجد تعبيرًا عن الألم الذي أشعر به. يدفع بأيّ عاقل إلى الجنون. باستغاثة العبد الشقيّ أرغب في إفراغ البول المتعاقب كل خمس عشرة دقيقة. أرغب في إفراغ البول والسائل المنوي معًا. أفضي الليل في الحتمّ. خبرت كل الآلام، وكان هذا الألم أشدّ ما يكون. لا أجد له منطلق أو وصف. كأنّه تمزق بمجرى البول. كما لو أنّ وحشًا يخرم جهاز البول بإبرة

ومسار. كبرت مائة عام من السأم والمرض. بدأت أطفو في إحساس من ضباب سام ومُهلك. تمَّ تحويلي إلى أخصائي أمراض الكلى والمسالك البولية. لا أستطيع أن أنسى إختبار منظار المثانة الذي أجرته. زوبعة من الخوف والتعرق. وصغير يطلّ من مجاهل ظلماء رُغم عويل الريح بالخارج. فقدتُ في خضمه أعصابي. أدخلوا كاميرا عبر فتحة البول. وشكّ أن أَلْفِظ أنفاسي.

قال طبيب الكلى. «يُمكنك أن تُمسكَ يدي»

أحمرّ كالشمندر. دام الأمر نصف ساعة. كان هناك سديم أسود يحوم حول نفسي المكسورة كسرب من الغربان. قد يقول قائل كيف قبلتُ هذا التحليل؟ كان الألم هو الذي قادني إلى هذا.

«مثانتك نشيطة جدا»

طلب منّي - فيما بعد - التبول في حوض خاص. إذا لم أتبول طواعية فهذه كارثة. لقد فعلت ذلك بجد. ومن فرط وجعي أفرغت تقريباً كل الطعام في معدتي. تناولت تولتيرودين لعلاج فرط نشاط المثانة، وهو الحاجة الملحة والمتكررة للتبول. تمَّ إيقاف أدوية الاكتئاب والقلق.

«هي التي سببت لك هذه الفوضى»

شعر الطبيب «توماس» بتأنيب الضمير. تحسّنت لمدة عشرة أسابيع

وعاد الألم. إنهيار كُلِّي ملتحاح من نفس تمزقت. أين مُرعب ينزلق إلى صُراخ واجم. أُجريتُ اختبارات أُخرى وتمّ تغيير طبيب الكلى. تمّ تشخيص إصابتي بالتهاب البروستاتا الحاد. امتنعت عن تناول أي دواء للمثانة وُوصف لي مُضادّات الالتهاب والمضادّات الحيويّة. أُغرب التُّهم التي وُجّهت لي أنّني قد ارتكبتُ أشياء خاطئة بالمصحّة. لم أُحجم عن الاستشهاد بكلّ الأشياء المُقدّسة، أبذل محاولة للتدليل أنّني لم أفعل شيئاً في حياتي. عندما كان «توماس» وحيداً معي -في مكتبه- أشار لي بطريقة ما أنّني فعلتُ شيئاً. وُجّهت يدي إلى بورترية مريم العذراء مُحلّصاً أنّني مثلها. لقد أراد فقط أن يُلقني بفشله عليّ. لقد غضبتُ مثل زوبعة مُستعرة.

أخذتُ أسلك طريق الشفاء، لكنني لم أكن سوى واهماً. كان الألم ربيعاً. أدرك بقهر شامل أنّني غير قادر على التعافي. تمّ تحويلي من طبيب إلى طبيب. خمسة أطباء كلى، لكلّ منهم تشخيص مُختلف. كشف تخطيط البول عن وجود انسداد في المسالك البوليّة، الأمر الذي نفاه الطبيب المُوالي. جزم الأخير أنّ ما حدث لي هو تهتك في أعصاب البروستاتا والجهاز البولي عامّة ذلك من مُضادّات الاكتئاب. صرف لي دواء عُشبي يُنظّم عمل البروستات، باكلوفين وهو دواء مُرخ لتشنج العضلات، وفيتامين سي والزنك. امتنعتُ عن شرب المنبّهات، والمشروبات الغازيّة، ولاسيما الأطعمة الغنية بالتوابل، إلى الأبد. حتّى مُسكّنات الألم تُثير ألمي. يخنلف ألم البول عن ألم القلب. إنّه حتّى أسوأ من هوسي وإكتنابي. متى يحترق إصبعنا يتدفّق ألم عظيم عن هذا. ماذا عن الإنسان إذا كان هذا

الحرق في جهازه البولي؟ هذا المكان الأكثر توتراً. لم أشعر بأي تحسّن إلا بعد أربعة أشهر. بتعزيز من الساعاتي الذي لم يتركني فريسة المرض. كان يوقظني كل صباح لممارسة الرياضة. أحضرت لي «كاثرين» عشبة تُخلّص الجسم من سموم الأدوية. أشرب فنجاناً مسلوفاً كل صباح ومساءً. وكلون من ألوان التخفيف من جلد الذات، ساعدني «توماس» في إدارة الألم والتكيّف معه من خلال التنويم المغناطيسي. ومع ذلك لم أستطع أن أنسى تلك الألام المبرحة. جعلتني أبكي كطفل. ولكن يمكن لأي إنسان أن يتخيّله من فرط ضياعي وبكائي. أمزّق هذين العامين من ذاكرتي ولا شيء يُقتلح من رأسي. تغيّرت حياتي تماماً. تلك العقاقير المظلمة والمجهولة التي استقرت في جوفي، جميعها خاطئة. عواقبها سوف تشدني إلى الموت. يا سأم السنين في وقتي. لا أدري لماذا يعصرني شعور قوي بأنني لن أعيش طويلاً. ما من شيء يُعيدني إلى سكينته نفسي بعد هذا التيه الرحب. تلك الصيدلانية المتربّصة كانت على حق. الأدوية النفسية تخلق أمراضاً لا يستطيع الأطباء فهمها.

ذرت السّماء المطر فعظّم أساي. أطلقت راحة يدي وحدّقت في خطوطها. ألقيتُ نظرة على الخطوط غير المكتملة، استحضرت، على حين غرة، ما نقلته لي قارئة الكف بنظرات هوجاء، سأتهي على أعتاب الثلاثين. لن أصلهم. خلّصتُ إلى التساؤل عن مدى تطابق ما أخطرتني به طبيب الكليتين الغبي يومذاك، أنني سأصاب بالسرطان في غضون بضع سنوات من جرّاء الأدوية الخاطئة. وجدت أن نبوءة تلك المريضة تطابق

تنبّوات الطّبيب إلى حدّ ما. خلّصتُ إلى التساؤل عن عمري الآن وماذا بقي منّي. ما تبقى منّي لا يكفي لتحقيق شيءٍ مما أروم إليه. سوى مزيد من السُّخط والتّخمين.

يبقى التخمين فرضيّة، غير أنّ الفرضيّة تركتني أحبّ كل يوم ينقضي. كان ينبغي أن أشعر بالأسى على كل شيء. وعن حالي وعن ضياع مستقبلي ولا سيّما عنّي، أنا. كان يقتضيني عصا سحرية مثل الحكايات الخيالية التي رأيتها في طفولتي لأحقّق كل أحلامي في فترة قصيرة من الزمن. قلتُ في نفسي: «سينقضي العمر ولم ألتقِ بأمنية واحدة.

ما تبقى من العمر لا يكفي للوصول للقمة. ولكن الحقيقة اليقينية، أنّ ما نقدّمه وما نتلقاه من دعم يُنسبنا القمة. المكان لا يهمُّ، ولكن من يُساندنا هو الأهمّ.

في خضم اليأس، تتلاقى أعيننا:

«لا تخشى شيء»

بيننا تقاربًا. بيننا علائم سرّية تفكّ النظرات شفراتها. كنتُ نجيبًا وشاحبًا؟ كمن أمهكه علاج السرطان.

استقطب رأسي المنهكه بين يديه وضمّني إليه. بدوتُ مُتوسّط القامة أمامه. استقرّيتُ في موضع الصدر. ولقّني بذراعيه. أنشأ مُورفين الصّمت يسري بيننا مثل كل الأشياء التي بيننا. الصداقة ظاهرة كونية تدوم وغيمة لا تفنى. لا تعرف ذاكرة ولا تقصدُ سنًا، بل صدقًا.

قُلْتُ بصوت مشوب بضجر كبير:

«ماذا لو»

أُجِمنِي السَّاعَاتِي نَاهِيًا:

«لن يمسسك العالم بسوء. أنا قبَّاص الزمن وعدَّاد الوقت. سوف

تعيش. لن نُقهَر. ستكون في حرزِ آمين»

إذا طرَّع السَّاعَاتِي الإِهَامَ بالوسطى وتحجَّرَ الوقت والنَّاسَ، لِثَلَا تنفد

سنيني وأموت، فماذا سنفعل وحدنا في هذا العالم الرحب؟

أقولُ على عجل:

«ألنا بَصُورَةٌ للذكري البعيدة؟»

«وفق مرامك يا عزيزي»

في عزِّ ضياعي وسأمي ألتصقُ به كما لو أننا في مجرَّة ثانية عن هاته

التي تتصل بأناسنا. جنبًا إلى جنب، تتلمَّس أناملي راحة يده. أصبحتُ

من نفسه. تلتقط لنا «كاثرين» صورة بالكاميرا خاصَّتها. نسترقُّ صُورة

وحزمة من الزَّمن. ما بيننا كيمياء الزَّمكان. لا تجاعيد لمواسيمنا ولا موفى

لقصتنا. له صيتٌ خاص. يُسيل تطلُّع قناعاتي. لا شيء ممَّا فيه يعني جُموع

العالم رُغم جهلي بالعالم. أنا وهو سرُّبٌ لا سماء لسائر الطيور. نحن قادة

دون جيش، نحنُ الجِيش، نحنُ الحصن ونحنُ الرُّماة. كان ذو أنفة. ابن

الحسن. ظنوني الغيبية. تأكيدي اللحظي. عمق الحظ. وميض النَّفق.

وانتلاج الحرب. كان لي. ليس من أحد. كان مني، طليق. مدوي في بسالته. باذخ الفهم. بطلٌ بفاكهة التورط وعبق الفُضول ومُشَقَّر بالغموض. دَعَوَى العصيان. يُجيدُ التجلي والتواري. رهان العمر. معني بالشهامة. مُترَفِّع عن الإختيار. مُشَق عن سابقه ومُقتدر بقادمه. لا يبتُّ قُدومه. لا يفتعل حَرَكَة عن ثباته. حسبُه أن يقف طويلًا شاخصًا بنظره فيقعُ زَيْف من حوله في وئام مُتلاشي. ما حُضوره إلا شُعاع الحق الذي أحسنَ صنيعةً في سُطوعه. حسبُه أن يصمتَ في زمنٍ يُدرك فيه العالم الثرثرة ويسطوع على أشباه الوقت. لا يُنازلهم، يترَفِّع عن تُرَّهاتهم ويا لفيض تُرَّهاتهم. يتفرد بنفسه وبمن يُخلص له. يكمن في مرَّاته الأولى. لا يعرف الكونَ طريقًا لِقِطَافِ ساعاته. ولا يقدر لجم ما يستوجب قوله في وقت الحق. لا يُرجى كلامه. غير واردٌ في مُعجم الهزيمة. منطقيُّ المُثابرة. على هذا القدر من الألم. يختبر النَّاس بذكائه مع بصيرة العاطفة.

يُدوِّمُ العُصفور من على كتفي ويتَّجه نحو القط وظل القط يشخر الطائر. بدوتُ عاجزًا بينما كانت عروقي قاسية وقلبي على وشك الموت.

حُبُّ الْمَرْأَةِ مُتَقَلِّبٌ كَالْقَمَرِ
أَمَّا حُبُّ الْأَصْدِقَاءِ فَثَابِتٌ كَالنُّجُومِ
مِثْلُ يَهُودِي

(18)

كانت حالة السَّاعَاتِي النَّفْسِيَّةِ وَالصَّحِيَّةِ تَتَحَسَّنُ تَحَسُّنًا جَلِيًّا، فَشَعُورُ بِالْمُغَادِرَةِ قَدْ كَانَ لَهُ. قَبْلَ مُقَابَلَتِهِ، كَانَ قَدْ تَقَرَّرَ مَنِّي الْإِسْتِسْلَامَ. صَادَفَتْ وَإِيَّاهُ تَضَمُّدًا لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ سَيَكُونُ لَا بِأَسْ بِهِ إِنْ اسْتَمَرَّيْنَا فِي الْكِفَاحِ سَوِيًّا. أَجْدُنِي الْآنَ أَكْثَرَ تَقْزِيرًا لِدَاتِي، وَفِي قَمَّةِ إِنْهَابِي، مَا أَنَّ قَبِلْتُ أَذْنَانِي نَبَأَ رَحِيلَةَ. تَمَلَّكْنِي لَوْنُ مِنَ الْجُمُودِ. سَبَقُ وَأَنَّ تَعَاهَدْنَا عَلَى بَقَاءِ سَوِيًّا نَتَحَارَبُ فِي وَجْهِهِ مِنْ يَقْطَعُ عَنَّا الْأَسْبَابَ. الْيَوْمَ خِيبةٌ أَمَلِي كَبِيرَةٌ وَجَرَحِي يَنْزِفُ بِدَرَجَةٍ لَا تُوصَفُ. وَلَا شَيْءَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعِيدَ ثِبَاتِي. مَا أَقْسَى حَاجَةَ الْمَرِيضِ وَالْمُنْهَارِ إِلَى الْمُوَاسَاةِ. خَلْتُ أَنَّنَا سَنُهَوِّنُ دَرُوبَ الْمَشَاقِ عَلَى كَلِينَا، وَسَوْفَ نَعْدُو خِلَانَ مَدَى الْأَزْمَانِ، وَلَيْسَ أَبْنَاءُ الزَّمَنِ الَّذِي يَتَنَاسَى فِيهِ أَحَدُنَا الْآخَرَ وَيَتْرَكُهُ ذَاوِيًّا وَذَابِلًا فِي أَسْوَأِ حَالَاتِهِ. حِينَ يَهَبُ الرَّحِيلُ، يَهَبُ مَعَهُ بَعْضُنَا الَّذِي لَنْ يَعْرِفَ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى مَا كُنَّا مَا قَبْلَ الرَّحِيلِ. أَنَا عَنْ نَفْسِي، وَمَنْ عَمِيقِ أَعْمَاقِي أَتَرْجِي لَهُ شِفَاءً تَامًّا، وَفِي الْآنَ عَيْنَهُ، لَا أُرِيدُهُ أَنْ يُغَادِرَنِي بِأَيِّ شَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ.

قَلْتُ بَعْدَ أَنْ انْتَفَخَ رَأْسِي:

« أنا وإيّاك. أن نبقي. دُونكَ أفنى. وفي حضرتك أبقى »

« لا بُدّ لي من الرّحيل »

« خلت أنّي وإيّاك سنُعانق أحضان الماضي قدماً »

« للحياة مسارات غير التي خططنا لها »

سقطت نفسي في بئر من ظلام ولم تنكسر. إلى الآن لم تبلغ نفسي قاع
ظلمة البئر. استحال لون وجهي إلى شبح لا يُخيف. من العويص أن أقول
«وداعاً» مكان أن أقول «إلى الملتقى» فهو لن يُولي أدراجه عائداً مُجدداً.

« أنتظرك بالخارج »

« وعود؟ »

يسرُّ رُغم دثار الشُّعور:

« للحياة وعود مُعادية »

دنا منّي. دنوت منه. وفي صمت تعانقنا. عيون طائشة وكيان في لوعة.
خدّاً إلى خد ألصق به، وأبوح بألم عقلي يرعد. تغيب صوتي وتحسّسته
برأس أصابه الضنك. أظلمت عيناى فاستنار قلبي. فتحتُ عيناى ألفيته
مُتوهّجاً كالفسفور. كمعجزة استقرّت بسرائري. تجتث أذرع التعب
المُتسخة عن ما تبقى من عشرينياتي. إنّ الوعود المضرّوبة في أوقات الحُزن
هي وُعود الحق التي لا يخلّ بها أصحابها. لهذا وعود الأصدقاء تغدو
منسيّة. عاهدوها في أوقات الغبطة والسعادة.

حادثته بخرس الكلام وحادثني بثبات واثق:
«لا أستطيع مُغادرة المصححة بدون مُساعدتك، سأواصل حياتي تحت
مُضادات الاكتئاب»

افتضح ضعفي النَّفسي له من نظرات زاغت عن العقل.
تحت وطأة الفجیعة، هدى من روعي قائلاً:
«ما من مُبرّر لهلعك. إنني لمُعيتك»
حدّثته همساً:

«إنك من تلك الصّباحات القادمة لتُنيرني، فلا تذهب»
ضمّ وجهي بين يديه مُطمئنّاً إياي:
«سأعود»

«رجاء، خُذني إلى ركن من ذاكرة بيضاء»
«أينما تشاء، سنكون»

«عدني، ألا تدع القدر يغضّ من شأنِي»
«لا شيء من شأنه أن يحطّ من يعلو فوقه الشأن شأنًا»
«الوطن أهلكني والغربة في نثيتها إلى اهتك بي»
غمغم توكيدًا جازمًا:

«في الوطن لم أكن مُلاقيك أبداً وفي الغربة لاقيتك فعلاً»

«عاهديني»

«وعهد الكون»

أخرج من جيب معطفه الأسود الطويل، قلادة على شكل ساعة. بسط
يدي ووضع القلادة.

تنفّس جبروت، رمق الوجود، وقال ببسالة:

«لكَ وقتي، سوف تعيش»

شظايا رذاذ لعبابه في أذني. تقشعرُّ له أوصالي لسُعار انخطافي به.
مآذنٌ تصدح وأجراسٌ تُقرع. أوقاتنا سنابلٌ ستُعِيد خلق نفسها بنفسها.
وكتمتُ في نفسي التي ما عاد يُثيرني فيها شيءٌ غُصّة بكاء. أهدتُ النظر
في عينيه. أشعرُ بالفقد والكسر. أشعرُ بفراقه في نفسي مثل ديبب الخدر في
اللحظة التي تبتعد فيها أجسادنا. أنظره كما لو أنّها مرّتي الأولى. كما لو أنّها
مرّتي الأخيرة. كما لو أنّه وجعي الأبدي. كما لو أنّي أفارقني. أسينساني
حدّ نكراني؟ لعلّ شأنِي لا يعنيه حدّ فراقِي. لعلّني اخترعته في فكري دون
أن يدري وتعذّبت أنا دون أن يكون له بالأ؟ عساني المُخطئ وما كان يجب
أن يكون ما لا ينبغي أن يكون. أنشأ بيطي من خطوه وكنّت في المقابل
أنتظر التفاتة، ولو نصف التفاتة، غير أنّه مضى ومن ثمّ تلكأ في سيره دون
أن يلتفت. كلانا يغيب عن الآخر. ما أقساه من شعور. ما أمرّه من حسّ.

جنازتيّ هذا المشهد. يتلامح الموت رحيماً مكان مشهد غيابه عنيّ. أنظره ختاماً والدّمار المهلك يقضم قلبي. لم أقتدر على أن أسهب النّظر بأجزائه. على عاتقي طبقات من الاكتئاب والحزن. أشعر وكأنّني مُعلّق في أحلك الأماكن. ضللت الطّريق ولا أجد طريقي للخروج. وعودض أن يبتلعني هذا الظّلام. أشعر أنّي أمتصّه إلى أقصاه. فراقه كان لي جُرمًا وهذا ما كان مُتوقّعا.

كان نسيانه أمرًا لا يُنسى، كنيسان الذي فيه من ذكريات لا تُنسى. وكان هجره بوصلة خسارتي. يُشير إلى أماكن مجهولة الموطى. لم يعد لي من أحيكُ له ما في نفسي. لم يعد لديّ أي علاقة بنفسي. هذا التقعر في قلبي لن يملأه شيء. دأب أن يُوصي بي خيرًا. أن أُلقي بالأعلى شأني. وأنا من بعده في ضياع تامّ. وفي أردأ أطواري. يعصرني التأسّي. ولا أعرف ماذا أفعل. أكون في حديث مُتقد مع نفسي حيال ما سوف يطرأ في سنوات الضّباب اللاحقة. ببساطة وسلاسة أردت أن أقدم له شروحا وإيضاحات بشأن ما أنا عليه في اللحظة الحاسمة والخرجة، غير أنّه ما كان سيفهمني على وجه السّرعة وسيظلّ أمري حدث مستنفد وغير معلوم بالنّسبة إليه. لئن كان الضّرر مرتبطاً بشموليّة معاناتي هان شأني. أين أنا من بعده؟ وأين حلّ به المقام من بعدي؟ أم أنّ المقام قد استقرّ به في جوف الحياة ونسبني ولم أعد ذكرى، غير أنّ ذكراه تُعاودني كثيرًا في يومي. أعلى الأشياء في هذه الحياة هي التي استوطنتنا في مكان لا نملكه مكان أن نملكها. لا زلتُ أتقصّي عن خيط العبور إليه وانقطاع الفوضى عنه ولن أُمسك مُحتمل الاهتداء

إلى وجوده وتوثيق مُعجزة حضوره. قبل لقائه كان الطريق من ظلام ما
مكّنني من صدارة الترسّب والرُكود في تزاخم تيارات أتون الغضب،
وعقب مُلاقاته أجدني في مرمى النور وسكينة البال من أحقاد، في الماضي،
قد دمّر تني.

إنه سر مديّ التّشئة. شيمه التّأي. عتيّ المواقيت. على أطلال تجمّره.
ضربة حظ. لا يحبّ الأضواء الكاشفة. يُتقن حركات حيائيّة. بها أوتيّ
من سُموخ وتواضع. من بريق عيني ه يُنوجد كمّ الصّبر. من أيّ سماء
سقط؟ بل رجلٌ مثله لا يسقط، يجيء شامخاً، مُتلتناً بوجود العالم وتمام
الفضاء. بطلٌ مُراد. ورجل حقّ. كذا الذي يجتمع بالكل ولا يختلط إلا
بنفسه. جمال السّاعة وقضيّة العصر. يُبائل المُستحيل في عصر ما عاد يليق
بالمُمكن. تتوسّم فيه كل ما تبتغي دون أو هي تفكير. يتفرّد بنفسه في زمن
على هذا الكمّ من المنازلة. بفائض الشهامة. عصيّ المقاومة. أبيّ الإنقطاع.
شهيّ الذكاء. يتهدم برقة ولباقة عاطفيّة. انبثاق الأدب ووليد الحرف.
صدمة وقتيّة ووعكة حيائيّة. استبشّر هناءً بوجوده. يجرس الكون من
لطافته ورقته وعزّته. «أهلاً» بنبرة صوته تكون توقيع مُروره. أمره قدرِيّ.
بروزه حدثاً مُجلجلاً. استثناء العالم. وصدفة الزمن. مُتخارج عن تسلسل
الزمن. توافقي الحاسم بشكلٍ أنيق. خيرة الحياة المُنتقا. كائن ساوي،
وميضٌ خالجي، واندلع بداخلي. نيران لا بُدّ لها أن تكون. أنيس الدّرب،
وفّر عني التّعب.

لم يعد يسترع انتباهي شيئاً في مدينة «نيس» من ذي قبل إلى الآن. سيظل الشيء الوحيد الذي في دواخلي، في هاته المدينة الخاوية، وبسالة لم أعهد لها. ولن يتوه من ذاكرتي ما حييت. مازلت أسلتطفها لأنّي لاقيته فيها. ستكون ذكرى مدينة «نيس» ذكراه. ذكرى أبدية لأنّمني من الذاكرة. كما لو كان يحملُ شَبهاً من جاهل سرمدية. وخاطرة الاقتراب من شخص ما تخيفني أكثر. سيظلّ زائري المنتظر كلما رنّ جرس بيتي. وطريقي، طريق المستحيل إليه.

كان فرحتي وجلبتي إلى الحياة وهذا حسبي أن أظلّ على انتظاري له. وكم من الخواطر المرتابة تدحرنني إلى يقين قدومه.

أستحضر أول لقاء كان بيننا.

كافحت، آنذاك، في قراءة قسماات وجهه. قرأت تعابير جاءت كالآتي:

«ما هذا المرتبك؟ يرتبك كطفل. طفل يرتدي ثياب راشد، في محاولة

منه أن يشعر بالأمان»

وعلى نحو ما كان قد سطم وميض وحس بالمسؤولية مُجاهه منذ أول لقاء. أصبحتُ دائم الرهبة من أن يطاله أدنى سوء حظ. أن يهب مثلاً، هواء من شأنه أن يضجر عينيه، أو أن تطمره السّماء ويصّاب بنزلة برد تُحيله وقتاً على السّريّر. أو أن يُلقني أحدهم بكلمة تلحق الأذى بنفسه. سأكونُ دعامة في الخفاء، بين نسماات الهواء. لن أكون وجودياً، وإنّما بطريقة ما. سحرية، وفلسفية. سأكون صديق أعماقه ورفيق ذكرياته. إنّه

بلغة الرسائل وأبجدية الوطن. ورفيق الفكر. رسالة شهية الكتابة وألتدّ بقرائها. كيف لي أن أكسر غيابه؟ لا أقتدر أن أفرض عليه ما لا يهوى إتيانه. تعثري به عدل الأرض وعطية المعاناة. صوابي اليقيني وتصويبي الوحيد. حبر التحوّلات ومغيث الأزمات. مُرهمي وعقّاري. مُنهمك في دوامة لا وقت لها. جبر الكُسور وشافي الشروخ. أنقى من لاقيت. تسرّب من مجال بصري وسُجن في أغواري. أحببتُ رفقتنا وكل ما دار بيننا، بيدَ أنّه لم يُدار بيننا باستثناء صممتنا. ومع ذلك فقد تمكّنا من ذلك فقط بصممتنا.

لم يُمهلني اللقاء زمنًا أطول إلا وحلّ محلّه فراق سيُفجعني مدى العمر. سأرتدي أدباش الحداد على فجعة الفراق هذه. سأبكي نفسي إلى أن ينشف دمعي. سأرتقبه ما بعد الصبر نفاذًا. وكلّي أمل أن يلملنا قدر ما. أنا لا أخاف عليه من شرور دُنيانا فحسب، أرتعب عليه من ألا يُبصر فيه أحدهم جمالًا مثل الذي رأيته وأكّنه له. أخشى ألا أكون هناك من أجله وتلقّي الأذى بدلًا عنه. إنّي على عهدي ذلك. هنيئًا للدهر على عطية الولاء تلك. قلما يوفي البشر بالذي عاهدوه. الوفاء نُدرة الزمن. لو تظافرت عليّ قوى الشرّ نُدرة زماني تظلّ له، باهرة.

فلا شيء عاد يهمني. ظننتُ فخاب ظني. وهل للظنون مسعى باستثناء الخيبة؟ فلا شيء عاد يهمني في نفسي. عدتُ كما كنتُ قبل ملاقاته، لن أعنى بنفسي بعد الآن. فليعود جسدي إلى النريف، فلا شيء عاد يهمني في نفسي، أن ينزف جسدي وأنتهي، أليق من أن ينزف قلبي على مدار حياتي

بأسهم الضاحكة النَّازفة. انتظرته بعقلي ونفسي ويا لهول المهزلة بروحي.

كسرني هذا الفقد. واستنزف الفراق طاقة تجشّمي.

أثمّة جريمة حياتيّة أعتى ممّا حدث؟ يا للقلب المهدور بين فكّي
فجيعته الرحيل. هواه وثق قلبي، لذا لن يكون بعده بعدُ. كلّهُ كونٌ مُجرّد
من الدحض.

غدّت ذاكرتي مرمدة الأيام، أمّا عن ذكراه فهي مطفأة للفاقة حياتي. لم
أعد أعي صنيع الحياة كما ترقّبي. التخمين فيه فوري ومؤلم.. كانتظاري.
لا أريد أن أكون وحدي رفقة عقلي.

تعود أن لا تتعود على أحد ما،
فذاذ يوم ستنتزع الأيام منك ما اعتدت عليه
نجيب محفوظ

(19)

الأشهر القليلة التالية، بعد رحيل الساعاتي، كانت ثقيلة بحُزنها المطبق والتعاريح مُلتهبة بشوق الصداقة. أهرمني بُعاده. أضناني ميعادنا الذي لم يأت. كُنّا نتكاتب من شهر إلى آخر، أخبرني أنّ حياته أصبحت أفضل بكثير، عاد إلى صنع الساعات، وإلى زوجته. تكشفت لي نقطة ضعف أخرى تنخر عصبوناتِي وهي التعود، الأمر الذي يُخيف قلبي.

تحت وقع الصدمة، راسلته أنا الآخر قائلاً له أنّ ذاك الذي يُغمغم على الدوام أنا لم أعد أتحمّل هذا، وبقسوة غير منتظرة قد شققت نفسه. عثرت عليه امرأة التنظيف وكانت جُثته مُدلاة من ناحية إلى أخرى. فُتح شرح بعقلي وكان تأنيب الضمير يُرغي من رأسي. التهمني الندم بشكل مُميت، لا يُوصف. ما كان ينبغي أن أهرأ من أفعاله. لقد كان محققاً تماماً، لقد سئم من كل شيء. ركضت في المشى -الذي فيه الأشجار من ذات اليمين وذات الشمال- ضاجاً كقنبلة موقوتة: «أنا لم أعد أتحمّل هذا» لا أقصد مكاناً محدّداً وأشعر بإكتئاب يخطفني إلى أماكن غير مؤكدة من هذا العالم. إنّ العالم مكان سيء. أسوأ ممّا كُنْتُ أتخيّله، حتّى في المصححة.

لم أتمكّن من القيام بأي شيء في الأيام المتتالية سوى التضاحك في الزوايا المعتمة على نحو هستيري. بجهود بائسة لتناسي ما حدث. اضطرّ الطبيب «توماس» إلى حقني لتهدئة الاضطراب الذي يمزق صدري.

بعد مضي شهر بالتّمام والكمال، جاءني برقية أخرى. تدفقت كلمات مُشتعلة من الرسالة كبر كان يصبّ الحمم.

«سوف أحيطك بخبرٍ لا ريب في أنّه سيُرضيك كثيرًا، ثمّة شقة في فيلفرانش، في المبنى الذي أقطن فيه، ستفرغ عمّا قريب، حمّنت بيني وبين نفسي أن تنتقل للعيش فيها. ستكون لك عائلة تعني بك. عاجل بالشفاء.»

قلت لـ«الساعاتي» أنّي لا أريد أن أسمع ضجيج السيّارات، ولا أصوات النَّاس، لديّ الكثير من الألم في رأسي وهناك الكثير من النَّاس في الخارج. لا أستطيع العيش في مدينة بعد الآن. الحياة هنا انتهت. كل يوم هو نهاية العالم بالنسبة لي. أنا مُتعب للغاية، وليس لديّ المزيد من الطّاقة للاستمرار. كلّ عام أسوأ من الآخر. ما هذا القرف؟ أنا لا أكل، ولا أنام، ولا أخرج. الجميع يضحكون، ويقضون عطلة جميلة.

ومع مرور الأيام حلّ الصّمت من حولي. أظلم عقلي. أثارت كلماته في دواخلي عواصف مُتداخلة. ظننتني أعود إلى حالة من التكدّر، إلى أتون الضّياغ ثانية.

وأنا إنسان يُصدّق ظنّه ولكن ما الذي يدفعني للظن؟

سأكون كاذبًا إذا قلت إنني لا أريد أن أضع نفسي في أحضان العالم الخارجي المقلق من جديد. كان ينبغي أن أجتاز هذا الجدار القاسي والكثيف من تراكمات الصدمات، وأن أكسر هذا الصمت الرهيب، وأن أقبل بعرض الطبيب «توماس» الذي يُرعبني وأن أفتح له قلبي فتحًا كاملًا وأن أواجهه كي أبلسم خروقي النازفة. وأن أنعتق من المكعب الضيق الذي سُجنت فيه. وربما أشهد تحوُّلاً جديدًا في عقلي.

قلتُ في نفسي، إلى متى سأظلُّ هامدًا؟ كلما تقدّم العمر بي يزداد ضباب ذاكرتي. أنا مُجهد. تعبت من التعرّض للأذى مرّة أخرى. بعض الأشياء الجميلة ليس مُقدّرًا لي أن أراها. ضقتُ ذرعًا من الشعور بالخوف طوال الوقت. تعبتُ من أكون على الطريق الخاطئ أبدًا. اكتفيتُ من منح فرص زائفة ووعود متأرجحة.

وقررت ذلك.

مضموم الذراعين، جلست في مُواجهة الطبيب «توماس» وقلت:

«افعل برأسي ما تشاء»

«سيكون كلُّ شيء على خيرٍ ما يُأمل»

أنا

عن نفسي

اليوم

ارتميت على عتبة الذاكرة أستجدي

هُنَاكَ

كَالْعَادَةِ

عَقْلِي يَلْطَمُنِي

أَبْكِي فُرَاقِي

هُنَاكَ

وَمِنْ فَوْقِ

تَقْتَرِبُ سَمَائِي

وَلَنْ أَلْتَمِسَ عَلَيَّي

هُنَاكَ

وَمِنْ فَوْقِ

تَسِيحُ سَمَائِي

وَمِنْ تَحْتِ

أَنْغَمَسُ فِي مَكَانِي

تَغْزُونِي الْحِكْمَةُ فِي مَكَانِي

أَسْتَقْطِبُ مَنِيَّتِي

أَجْتَرِّ ذَاكِرْتِي

وَأَنَا

عَنْ نَفْسِي

دُونَ نَفْسِي

أَعُودُ إِلَى نَفْسِي

مهما كان كتاب ما حزينًا، فإنه لن يبلغ قط درجة حزن الحياة
أخوتنا كريستوف

(20)

شرح لي «توماس» عملية التنويم المغناطيسي ونصحني بارتداء
ملابس مريحة. ولكي أتحرّر من صدامي ينبغي أن أكون مُتأهّبًا لتحرير
نفسي من التنويم المغناطيسي بمفردي وليس بمعيّته. لأوّل مرّة، تولّد
بأعماقي استحكام قرار حياتي. كدت أبكي لا فرحًا ولا غُبنًا، لكنني
كدت أبكي من أجل لا شيء. كانت السّماء جاهزة للسّماء. وكان الأفق
يظلم من عُمره الكآبة. وكان الهواء سميكًا مع ظلام الذاكرة. جعلني
الطبيب «توماس» في حالة تشبه النّوم العميق من أجل تعزيز التركيز.
شعرتُ بالهدوء والاسترخاء كأنّنا ذراع ساحر تشدني. في بيت رحب
وقاتم، وجدت نفسي مثل مقامر أمام ثلاثة أبواب يجب أن أفتح أحدهما.
بدأتُ أسبرُّ جغرافيّة أعماقي.

وقفت أمام الباب الأوّل الذي يُشبه فوهة غول شرّير. الرعب المهلك
يهزني.

أنتنفض كمن ترامى عليّ خيطٌ مكهرب. وكانت صرخة أمي مُرعبة
ومريرة وقاسية. الخوف ما لبث ان استفاق مرّة أخرى.

كانت الكلمات ترشّح من مسام الظلال. «أتركني»

شَيْئاً فَشِيئاً، يَزِدَادُ صِيَا حَهَا وَتَنْفَعُ كَفَقَاقِيَعٍ مُفْرَقَعَةً:

«إِلَيْكَ عَنِّي»

خُطِي ثَقِيلَةً تَأْتِي. بَابُ غَرَفَتِهَا يَنْفَرُجُ عَلَى مِصْرَعِيهِ. انزَلَقْتُ بِأَسْرَعٍ مِنْ غَمَضِ الْعَيْنِ. فَفُوجِئْتُ بِمَلَابِسِ وَالِدِي مُتْرَهَلَةً وَشَعْرَهَا مُبْعَثِرٌ وَحَالَتِهَا سَيِّئَةٌ، وَكَحَلِ الْعَيْنِ كَانَ يَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا وَشَفَتَيْهَا مَلَطَّخَتَانِ بِالْأَحْمَرِ. فِي صَقِيْعِ الْعَتَمَةِ اسْتَحْكَمْتُ بِهَا عَاصِفَةً مِنَ الضِّيْقِ. انْدَفَعَ أَبِي وَانْدَفَعَتْ مَعَهُ رَائِحَةُ الشَّرَابِ. شَدَّهَا مِنْ شَعْرَهَا أَمَامَ الصَّغِيرِ الَّذِي كُنْتُهِ. صَفَعْتَهُ أُمَّيْ وَكَانَ تَفْكِيرَهَا مُخْتَصِرًا يَدْسُ بِهَا فِي كُلِّ الثُّقُوبِ الْمُظْلَمَةِ الْمَرْجُوعَةِ. احْتَمَتْ بِي. فِي سَابِقَةٍ جَدِيدَةٍ لَا عَهْدَ لِي بِهَا أَشْعَرُ أَنِّي مُتَعَهِّدٌ فِي هَذَا الْبَيْتِ، بِيَدِ أَنِّي لَمْ أَتَجَاوِزِ الْعَاشِرَةَ بَعْدُ.

«أَلَذَّتْ بِابْنِكِ الْخَنُوعُ»

تَنْهَالُ كَلِمَاتِهِ. يَنْقَبِضُ قَلْبِي. رَغِبْتُ لِحَظَّتَيْهِ أَنْ أَدَسَّ رَأْسِي فِي أَيِّ مَكَانٍ خَشِيَّةٍ أَنْ تَلْقَطَنِي مَخَالِبُ كَلِمَاتِهِ.

«Viens dans mes bras mon amour»

تَغْمِرُنِي مَوْجَةٌ مِنَ الْكَآبَةِ الْمَفْرَطَةِ وَالْمُهْلِكَةِ لِلذَّاتِ وَمَا مِنْ أَبٍ يَنْطِقُ بِهَذَا الْقَوْلِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَرِيضًا

كَانَ وَالِدِي يَتَعَثَّرُ بِحِمَاقَةِ مُصْطَنَعَةٍ وَيَتَحَدَّثُ بِأَسْلُوبٍ لَا أَخْلَاقِي مَعَ وَالِدِي:

«أنتنّ النساء ترغبنّ بالشيء حتى وأنتنّ على فراش الموت»
 الدم يهرب من وجهي المنتفخ ويقول الصغير بسأم:
 «عد إلى غرفتك»

«أنى لك رأي أيها الخضوع وماذا تفهم من الرجولة لتقف في طريق
 رجولتي»

يسقط بيده نحوي ويصفعني لأبتعد عن طريقه، فتعانقني والدي
 وتقبّلني وتطلب مني الهرب إلى غرفتي. مخالب شرسة تلتقي أعيننا على
 الحدّ الفاصل للكلمة. أعود بغرفتها دون أن أدرك ذلك واختبأت في خزانة
 ملابسها. ألاحظ همسات شرسة وآهات بذئثة، ورائحة النذالة تداعب
 أنفاسي الصافية، فتلوّث. لكنّ المرارة كانت مستبّدة هذه الليلة. أمطرها
 بالقبلات يسرح كالثعابين وألصقها بالحائط. اعترته ثورة شبقية. سلّمت
 له أمي جسدها مطلقة الذراعين والضم. وهذا الضم لم يبق على ما هو عليه.
 وإنّما سرعان ما نال نصيبه من القبلات العجولة واللاذعة. كسّر لها بأنيابه
 المعقوفة. واللّهب يكويه. يقدحها بسياطه المحموم. انفجرت الأحقاد
 من الأعماق. وشعرتُ بدرجة سامقة من والاشمئزاز والكرهية. لكنّ
 هذا الشعور لم يدم. استبدل بشيء مظلم. غمرني الفراغ. أقمع الشعور
 بالاشمئزاز الذي سينفجر في داخلي من أنا؟ لم أبلغ العاشرة بعد.

وقفت أمام الباب الثاني الذي كان أكثر قتامة. دواليب نارية تطحنني.
 مرض أبي بالسّرطان. ولزم الفراش في وقت لاحق. لم تهتم أمي بذلك

على الإطلاق. إنها تبقى دائماً خارج المنزل. تعود في غضون أيام قليلة. تتزيّ بزيّ الأمّ الحنون والزوجة المثالية. ثمّ تنشغل بمكالماتها. وعلى نحوٍ مفاجئ، تُعادنا مسعورة في محرقة مسمومة. في هذا الجوّ الكئيب، باغتني التعب مرّةً أخرى. ظننتُ أنّ التعب هجري، لكنني كنتُ مُحطياً في اعتقادي. كان التعب يكمن في أعماقي وينتظر اللحظة الحاسمة. كنتُ مُنظرِحاً على الأرض لا أقوى على النهوض. جاء إلى مسامعي فحيحاً يرجو الإرتواء.

قال:

«ناولني كأساً من الماء»

لم أستطع النهوض لألبي حاجته. كان تعبي إلى درجة لا تطاق.

قال ثانية:

«ناولني كأساً من الماء»

ظل يُردّد ما يقوله إلى أن خمد صوته. أدركتُ أنّه قد توفّي. مات أبي راجئاً قطرة ماء.

غائب الذهن امتثلتُ أمام الباب الثالث وقد عاينتُ المعمة خلفه. كان قلبي جداراً من الحجر ينهار في أبعادٍ أخرى. أشحتُ بوجهي وقد تغصّنت قسماتي. تطفو الصرخة واجمة، كان باب الكلية. أعرفُ مُسبقاً

ما فيه. من بين الذكرى الأولى التي ستتظلُّ تِلْازمني. كنتُ أرغب في
تبديل صيغة الماضي، لكنني لم أرجع الزمن إلى الوراء للقيام بذلك. بلغ
حُزني ذراه، أُريد أن أنفجر. مشيت بعيدًا ووقفت أمام الأبواب. مسكون
بالإرتعاش كحصار. أفكارٍ وهواجسي وبالتّالي شرّاتي. وُجد فأسًا
على يساري. أخذته تلفني زوبعة تُراب. وبدأت في سحقهم بقراري مثل
سحابة مُدْهمة راعدة دون أن أثمر بأوامر الطبيب.

كان الوقت ساكنًا ينخر في الذاكرة وهاجًا. تكوّمت في رأسي أرتجف
مع دوي الرعد من كل شيء.

بعد أن عدتُ إلى واقعي، قال الطبيب بصوت جاف:

«ستشعر بصداع ودوار لأيام. ستختفي هذه الأعراض»

لا تتوقّف الحياة بسبب بعض الصدمات،
فالوقت لا يتوقّف عندما تتعطل الساعة
خليل جبران

(21)

يتساقط الثلج في نيس كل عامين. تنزلق رقاقت الثلج في أحضان الحديقة. كان اسمي ضمن اللائحة، التي سيقيض لها مغادرة هذا المكان، الذي قضيتُ فيه ثلاثة سنوات ونصف. لم يعد العالم الخارجي أمانة ضياع. بل بوصلة لفرض نفسي. على الرغم من أنّ الأمر استغرق مني أقل من أربع سنوات. لا شك في أنّ من كانوا في دُفعتي قد أكملوا درجة الماجستير، أو سجّلوا للحصول على الدكتوراه، أو تقلّدوا مناصب مهمّة، أو متزوجين ولديهم أطفال. وأنا ما أزال في مكاني. وتلك الفتاة الشقراء، بلا شك، لم تعد تبكي، وقد حققت، نيابة عني، كل أحلامي. أمّا ما كان من أمر أولئك الإداريين بالكلية، فلا ريب أنّهم مازالوا يلعبون لعبتهم الشريرة مع الطلبة الأثرياء. وأنا لم أكن سوى ضحية ظنّ الشراء. أحسب أنّ الطبيب «تيمور» يواصل إفشاء الأسرار الطبيّة لمرضاه. أعتقد أيضًا أنّه ما زال لا يدرك الألوان غير المتناسقة لجواربه. كان يجب أن أخبره بذلك قبل أن نشاجر. ما كان حظّي مؤسفًا بكمّ ما كانت ممراتي حافلة بسفه الناس. خلّصت إلى التساؤل عن أمر تشيرنوبل. أكاد أجزم أنّ المستوى غير الطبيعي من الإشعاع قد بدأ يُسبب السرطان.

ناولتني «كاثرين» رقم هاتفها وطلبت مني أن أبقى على اتصال.

«ستقابل بالخارج»

«سنشرب الشوكولاتة الإيطالية الساخنة في كافيه فيرجنانو»

شكرتها. توادعنا. جذبتُ نفساً عميقاً وتحوّلتُ إلى الإتجاه الآخر، أجرّ حقيبة ثقيلة. قبل مجيئي إلى هنا كنتُ مفعماً باليقين. اليوم أُغادر -بصحة مُحطّمة- وأنا مليء بالشك. قبل وصولي إلى محطة الترام أخذتُ نفساً آخر. ولأنني لم أكن أملك أي قطعة من المال، أعطيت فتاة ورقة نقدية من فئة عشرة فرنك فرنسي واقتطعت لي بعملاتها النقدية، تذكّرة لعشر رحلات.

«هذا لطفٌ منك»

«أعدتُ تواً من سفرك»

«قضيتُ العطلة بالوطن»

نهرتني «كاثرين» -بأي شكل من الأشكال- من التحدّث مع الآخرين عن كوني كنتُ في المستشفى. لأنهم سيتجنّبونني كما لو كنتُ أحمل البق. ومع ذلك، لا خجل من المعاناة الإنسانية.

كان من الصعب -بعض الشيء- أن أبحث عن الحياة، ثانية، بين الآخرين، وأدخل في علاقات من شأنها أن تسبّب لي الألم. فكرة أنني سأنتهي على أعتاب الثلاثين، عالقة في رأسي. وقتي ينفد كرمل الزمن. ليس لدي أيام طويلة أخرى لأضيّعها في التأسّف، بعد الآن. رسخ ما قاله

لي الطبيب في رأسي: «أي شيء أريده من نفسي في الغد؟ أي شيء أتطلع أن أكونه؟ كل ما حدث، لا يعدو كونه قد حدث في الماضي. ولا يوجد في حاضرِكَ سوى بتذكير نفسك به. لست أنتَ من تستحضره من الماضي ولن تكون أنتَ نفسه غداً غداً. ثمّة استحداث يحدث لك وأنتَ عداد ما أنتَ عليه. عندما تنتهي من حيث بدأت يبدأ الموت.»

تقول «مي زيادة» بعد أن نالت نصيبها من الظلم «أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني» هل حقاً سيحيي بعد موتنا من يُنصفنا؟ لأي شيء لم نكن نحن الذين نُنصف من لم يُنصفهم أحد، الذين سبقونا؟

أوقفني رجلٌ بلا مأوى. شعرتُ بالتعاطف معه. أعطيته بعض المال.

استقلّيت الترام مُتجّهاً إلى ميناء لمبيا ومن ثمّ الباص إلى فيلفرانش. لا شك أنّ السَّاعتي في ترقّبي. يصيح السَّمع إلى موج البحر وإلى حفيف الرِّيح. وكوب من القهوة في ترقّب و صولي كما أنتظر زمناً أضلّ ثنيته. لا أحتسي القهوة غير أنّه - حتماً - يعدّها من أجلي يوماً بتوقيت غبطة قُدمي. بتوقيت الآن وغداً وإلى الأبد. كنت سعيداً جداً لأنّ صار لديّ عائلة جديدة. دأبتُ الجلوس وأقُص عليه كل شيء. أنا الغريب والمُضاع والطريد. يُدركُ أنّي دونه في ضياع وفي داخلي مزقُ الشُّعور. وفوقي سحابة مُنمطر. قدرتي يصطرخ في صدري. أفتقده بحجم أنّي أدوي في غيابه. كما أنّه لم يعد بإمكان العالم صنيع أيّ شيء حياي، أضحيتُ مُستقرّاً الآن، كما

انتويتُ أزلًا. صرتُ طليقًا إلى مكيال التحليق. لم يُعد ما يؤلني باستثناء غيابه. كان كل ما فيه عداً أنه ليس جواري وغيابه كالسيّاط يجلدني. دونه نالت من نفسي الشيوخوخة. غير أنّي أراه دائماً يطوّقني كهالة تُبددُ سُرور عالنا. كيف لا يكون معي وهو نبضٌ يدوم. لم أفقده لأنني أعرف أنه إذا خسرته فسوف أفقد نفسي، كما هو الحال معه، لم يفقدني لأنه إذا خسرني فسوف يفقد هويته. تمّ تشخيصي بمرض يستعصي على العلاج ألا وهو الغياب ولن أتمس الشفاء إلا بحضوره. أحد مضاعفات هذا المرض هو نزيف الذاكرة الدوري، أي أنّني على أعتاب الموت. قرعت الباب قرعاً خفيفاً. يخفق قلبي خفقان الذبيح. كُنْتُ على أهبة الإستعداد لأغفر له كل مواقيت غيابه. أخذته على محمل الوحيد، عائلتي. الانتظار لون من ألوان الوفاء. ومن أعمق أعماقي كُنْتُ مُتيقّن إلى أبعد حُدود اليقين من أنّ هذا الأمر برمّته سيحدث. سأجد عائلة مُحبّني. نشأت صداقتنا في صندوق الحطام، لذلك لا يوجد شيء في قدرته على وصف فرحة العثور أحدنا على الآخر وما وُلد من الحطام هو صدق الحياة الموعود إتيانها. أخيراً، كان السّاعاتي. لوقع التوقع لا بُدّ للقاء الختامي أن يكون. ما بيننا حريق يتضرم، أبداً لا يخفت تأججه. أعلنتُ عليه أبديّتي كما يجب أن يجلب الكاتب الخلود. كان بشحمه ولحمه وقامته الرفيعة ينظرني. كلانا مُخضّبٌ بالدموع. نقلتُ له أنّ ليس للفراق مكاناً بيننا وإن وُضعت رأسي تحت المقصلة. لا أحد يستطيع فكاكنا كوننا نُريد أن نكون سوياً. لا شيء من شأنه أن يحيل ما بيننا. لا موفى لقصتنا وسيحتفظ أحدنا بالأخر بما لا

يُقاس وإلى الأبد. الصداقة فقدان التخليّ وفعل تمسك. الصداقة أصعب اختبارات الحياة، وأنا عن نفسي أقرّ أنّي أخفقتُ في اختبارات الحياة باستثناء إختبار الصداقة، أيّ إله. دنا منّي على ضخامته. دنوتُ منه بنفس المقدار. وفي صمت أطقّت عليه صدري. جعلنا من نفسينا نفسًا. خامرني شعور حاسم أنه سيعود ولن يُغادرني تحت أي ظرف. أنا لم أرجو منه شيئاً سوى أن يكون حضوره دائماً وأبدياً. أراه كما لو أنّي لا أرى أحداً في العالم. وذلك كلّهُ يُشعّرني بحقيقة وجودي أكثر ممّا كنتُ أنا. به عرفتُ نفسي. فلا شيء من شأنه على مقدرة من حجه عني. ولأنيّ شيدتُ ما بيننا على أركان الولاء والإخلاص والأمانة فلا شيء يهزّ ما بنيته. ولأنيّ أتيتُ من منه، أنا جليسه. وكوني وليدُ أيامه، أنا رفيقه، وبما إنني لامستُ أغواره فأنا روحه الأخرى ولأنيّ من صُلبه فأنا ابنه الحق. هدوء لم أشعر به طيلة حياتي، أنني في بيئةٍ صحية تؤويني. وعائلة بها عرفت عِوضي. كل ما عشته في الماضي لا يُعد عن كونه قد حدث في الماضي.

أمّيت مسودّتي الأولى في أكتوبر 2016

كُتبت الرواية في:

مساكن: تونس

نيس: فرنسا / 2020

ياسين الغماري

الساعاتي

بلغّة مدهشة يصطحبنا الروائي التونسي الشاب ياسين الغماري إلى عوالم سردية شاسعة، حيث يتجلى أسلوبه السردى المذهل في استحضار الأحداث و الشخصيات برشاقة و سلاسة، تدفع القارئ إلى اللحاق بالتفاصيل لسبر أغوار خفايا روايته التي وصفها بالخيالية، يذهب ياسين الغماري بعيداً إلى آخر معاقل الساعاتي صانع الزمن مرورا بإشارات اللغة الفاتنة و عنصر التشويق الذي يصاحب أحداث الرواية من البداية حتى النهاية ليبرسم بطريقته الخاصة مسارات سردية مشوقة و فضاءات متعددة في عالم الرواية.

الناشر



ISBN 978-3-98529-273-6



9 783985 292738 >



دار النشر والنشر

www.daralshar.com